نقض معتقد الخوارج الجدد

الطبعة الرابعة – الجزء الأول – [التأصيل]

تأليف : أبي شعيب – ٢٧ محرم ١٤٣١
https://www.facebook.com/naqd.khawarij/

بسم الله الرحمن الرحيم ؛

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد ..

هذه هي الطبعة الرابعة من كتابي "**نقض معتقد الخوارج الجدد**" ، أكتبها بعد مضي زهاء العشر سنين على سابقتها ؛ وهي بتأصيل وترتيب جديد يختلف كثيراً عمّا مضى . راعيت فيها الاختصار والوضوح قدر الإمكان ؛ فإني قد وجدت أن كثرة الكلام تُمحق البركة وتزيل النعمة ، وأن خير الكلام ما قلّ ودلّ ، بشرط وضوح لفظه وصراحة معناه .

وإني بعد أن خضت في هذا المجال سنين طويلة ، وحاورت أعداداً من الغلاة وتعرضت لشبهاتهم بالنقد والتدقيق والتفنيد ، اجتمع عندي حصيلة لا بأس بها من العلم نتاج الخبرة والنظر ، قد ضمنتها هذا الكتاب ورتبتها على أصول وأبواب ، يستطيع من تناولها بحقها أن يرد على عامة شبهاتهم ، ويعصم نفسه من فتنتهم ، بإذن الله (تعالى) .

وينبغي التنبيه هنا إلى أن أسلوب هذه الطبعة مختلف كثيراً عن أسلوب سابقتها ؛ ومن النصيحة أن تقتني الطبعتين ليحصل لك أكبر قدر من الفائدة .. فقد يُفيدك أسلوب الطبعة السابقة في مواضع حيث لا يفيدك أسلوب هذه الطبعة ؛ والعكس صحيح .. ذلك حتى ييسر الله (سبحانه وتعالى) لطبعة خامسة جامعة للطبعتين السالفتين .

هذا ، والله (سبحانه وتعالى) أسأل لنفسي سلامة القصد ، وصلاح العمل ؛ وأن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم ، لا أبتغي به شيئاً من حظوظ النفس أو متاع الدنيا .. والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا به .

▪ نبذة عن الكتاب ومنهج العمل فيه

يتناول هذا الكتاب الرد على شبهة اشتهرت بين الغلاة ، وتفرعت عنها شبهات كثيرة ؛ وأساسها : تحديد مفهوم أصل الدين ؛ وما أدخلوا فيه من أمر "التكفير" وإيجابه على الخلق حتى يحققوا "أصل الدين" هذا الذي يقولون به .

ثم تفرع عن ذلك مسائل عدة ، كـ العذر بالجهل ، وتكفير العاذر بالجهل ، ومعنى الفطرة ، وشروط البراءة من الشرك ، وأحكام دار الكفر وأهلها ، وغير ذلك مما يتناوله هذا الكتاب بالبحث ، والاستقصاء ، والتفنيد .

أما منهج العمل في هذا الكتاب ، فهو باستظهار سبيل أهل الحق في الاستدلال ، ومباينته لسبيل أهل الباطل ؛ وقد جعلنا لذلك مقدمتين ضروريتين ؛ ثم تحقيق ذلك باستعراض مقالات القوم وأشهر ضلالاتهم ، ثم عرضها على ما تقرر لدينا من معالم السبيلين ، ليرى القارئ كيف أنهم يسلكون سبيل أهل الباطل ويُعرضون عن سبيل أهل الحق .

وقد وضعت هذه الطبعة على جزئين : الأول منهما يُعنى بالتأصيل للمسائل الشرعية التي منها تنبثق شبهات القوم ؛ والثاني يتوجه للرد على أشهر شبهاتهم . ولا غنى للقارئ عن الجزئين ؛ فإن كان ولا بد من أحدهما ، فالأول هو الأهم .

▪ مقدمة ضرورية – ١

مادة هذا الكتاب ومسائله مبنية على مقدمة أصلية مفادها أن القرآن الكريم قد أنزله الله (سبحانه وتعالى) ليكون حجة قاطعة حاسمة في باب التوحيد خاصة ، وأصول الدين عامة .

قال الله (سبحانه وتعالى) : {الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ || أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ}

قال ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره :

[-- {ألا تعبدوا إلا الله} – أي : نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ؛ كما قال (تعالى) : {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء : ٢٥] ؛ وقال : {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل : ٣٦] . --]

وقد حفظ الله (تعالى) أصول الدين التي يقوم بها منهج المؤمنين بنصوص مُحكمة ، لا مجال للاختلاف فيها ، ولا تحريفها ؛ وذلك حتى يبقى كتاب الله (تعالى) هو حجته البالغة على خلقه إلى قيام الساعة ؛ من بلغه وفهم ظاهر لفظه البسيط ، ودلالته الصريحة المباشرة : فقد قامت عليه الحجة ، وانقطع عذره .

- قال الله (تعالى) : {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}

فليطمئن الناس جميعاً : الغاية التي خلقهم الله (تعالى) لأجلها ، وبها أنزل كتبه ، وأرسل رسله ، وخلق الجنة والنار ، قد بيّنها القرآن الكريم أتم البيان ، بالنص المحكم البيّن ، ذي الدلالة المباشرة الصريحة على المعنى المقصود .

وما دام الإنسان مكلفاً – بغض النظر عن مستواه الذهني وقوة بديهته وإدراكه – فإنه يلزم أن تكون تلك الآيات ودلائلها ظاهرة بيّنة عنده ، تقوم بها الحجة عليه التي لا عذر له في تركها ، أو ادعاء عدم فهمه لها .

•••••

وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد بعثه الله (سبحانه وتعالى) مُقيماً للحجة بآيات الكتاب ، ثم عاملاً ومتخلّقاً بها في الناس ، حتى يعلموا كيف يكون العمل بكتاب ربهم . وكان لهم بها أيضاً مُعلماً وموجهاً ومربياً . **فالنبي (صلى الله عليه وسلم) قد استوفى بيان جميع مسائل التوحيد بياناً شافياً شاملاً ، لا يحتاج معه ولا بعده إلى بيان** ؛ فإن ذلك هو الغاية من بعثته ، ولا يؤمن أحد يزعم أن من الناس من بيّن التوحيد أفضل من بيان النبي (صلى الله عليه وسلم) !

- قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس» ..

أي أن مسائل الحلال والحرام بيّنة يعلمها عامة الناس ؛ لكن المشتبهات هي التي يعلمها الخواص منهم ، وهي محل الاجتهاد والاستنباط والنظر .

- وقال أيضاً : «قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»

وهذا يقتضي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد بلّغ الدين ، وبيّنه أحسن بيان ، حتى غدا كالبيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك .

- وقال أيضاً : «ما بقي شيء يقرِّب من الجنة ، ويباعد من النار : إلا وقد بُيِّن لكم»

وبيان النبي (صلى الله عليه وسلم) ، الذي هو أحرص الناس على نفع الناس ، وأرحمهم بهم : هو أحسن وأفضل بيان ، لا يضاهيه بيان .. فمن زعم بعد ذلك أن الناس بحاجة إلى "شرح التوحيد" أو "تبسيط العقيدة" ، من بعد بيان النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهو مبتدع ضال .

واعلم أن كتب "التوحيد" و"الإيمان" و"السنة" التي ألّفها السلف الصالح الأوائل ، إنما كانت تُعنى بالرد على شبهات وضلالات أهل البدع ، لا أن تكون مصدراً للدراسة والتلقي ؛ وهذه مسألة قلّما تجد إنساناً يفطن لها في هذا الزمان .

- قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى ؛ ولا في هدى تركه حسبه ضلالة ؛ فقد بينت الأمور ، وثبتت الحجة ، وانقطع العذر)

فإن كان كذلك ، فإن مسائل التوحيد ، الأصلية والفرعية ، قد حصل بها الاكتفاء التام بالكتاب والسنة ؛ ولا حاجة لأقوال البشر ، كائناً ما كانوا ، لأجل أن يفهم الناس توحيد ربهم بالنحو الذي يُنجيهم من النار ويدخلهم الجنة ! .. فجميع النصوص المبيّنة للتوحيد محفوظة في الكتاب والسنة . وربما نحتاج إلى أقوال السلف في بيان فروع مسائل الاعتقاد الخبرية ، مثل عذاب القبر ، وتفاصيل اليوم الآخر ، وأحوال الملائكة ، وغير ذلك مما يسع المسلم الجهل بها ولا يؤاخذه الله (تعالى) عليها .

والعمل بهذه المقدمة الضرورية ستجده بادياً في منهجنا في هذا الكتاب ، سواء عند التأصيل للمسائل أو الرد على شبهات القوم .

لذلك نقول أخيراً .. **أي مسألة هي من مسائل الدين ، التي يحتاجها عامة المسلمين ، ويؤاخذهم بها رب العالمين ، لا بد حتماً وقطعاً أن تجد لها نصوصاً خاصة صريحة ، تتناولها بالبيان المباشر ، وباللفظ الواضح ؛ بما لا يحتاج معه إلى استنباط واجتهاد وتعمّق في النصوص لأجل استخراج دلالتها** .

وأيضاً ستجد تأكيداً وتصريحاً من النبي (صلى الله عليه وسلم) بها ، بأقواله وأفعاله .. فتجد أقوالاً له مثل : "لا يؤمن أحدكم حتى يكون كذا وكذا" ، أو "إن من الإيمان فعل كذا وكذا" ، أو "إن الله يحب كذا وكذا" .. وغير ذلك من الأحاديث التي تحضّ عليها ، وتذكر الناس بها ، وتحثهم على التزامها والمداومة عليها ، وربطها مباشرة بالإيمان .

هكذا هي الحجة البيّنة ، التي لا يعوزها الاستنباط ولا الاجتهاد لأجل استظهارها والوقوف عليها ، بل تأتي بالتصريح واللفظ الواضح الذي يخصها بالذكر المباشر ، وذلك حتى لا يحتج غبيّ أو ضعيف العقل فيقول : لم أعرف كيف أستنبط أو أربط الأدلة بعضها ببعض ، وذلك لضعف عقلي وبلادة ذهني .

افهم هذه المقدمة جيداً ، وراجعها مراراً حتى تستقر في ذهنك ، فإن الكتاب يستمد أصل مادته منها .

ولابن تيمية رسالة نافعة جداً جعلها في مقدمة كتابه "درء التعارض" ، أنقل قبسات منها وأختصر بما يتوافق مع مقصود هذا الباب .. فأمعن فيها النظر والفكر ، فإن فيها فوائد جمة ..

قال شيخ الإسلام (رحمه الله) في [درء تعارض العقل والنقل : ١/٢٥ – ٧٨]:
[--إن قال قائل : هل يجوز الخوض فيما تكلم الناس فيه من مسائل أصول الدين ، وإن لم ينقل عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها كلام أم لا ؟ ... وإذا قيل بالوجوب ، فما الحكمة في أنه لم يوجد فيه من الشارع نص يعصم من الوقوع في المهالك ، وقد كان (عليه الصلاة والسلام) حريصاً على هدي أمته ؟

فأجبت : الحمد لله رب العالمين ..

أما المسألة الأولى : قول السائل : هل يجوز الخوض فيما تكلم الناس فيه من مسائل أصول الدين ، وإن لم ينقل عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها كلام أم لا ؟ .

سؤال ورد بحسب ما عُهد من الأوضاع المبتدعة الباطلة . فإن المسائل التي هي من أصول الدين ، التي تستحق أن تسمى "أصول الدين" ، أعني : الدين الذي أرسل الله به رسوله ، وأنزل به كتابه ، لا يجوز أن يقال : لم ينقل عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها كلام ؛ بل هذا كلام متناقض في نفسه .

إذ كونها من أصول الدين : يوجب أن تكون من أهم أمور الدين ، وأنها مما يحتاج إليه الدين ؛ ثم نفي نقل الكلام فيها عن الرسول يوجب أحد أمرين : إما أن الرسول أهمل الأمور المهمة التي يحتاج إليها الدين فلم يبينها ، أو أنه بيّنها فلم تنقلها الأمة ؛ وكلا هذين باطل قطعاً ، وهو من أعظم مطاعن المنافقين في الدين .

وإنما يظن هذا وأمثاله من هو جاهل بحقائق ما جاء به الرسول ، أو جاهل بما يعقله الناس بقلوبهم ، أو جاهل بهما جميعاً ؛ فإن جهله بالأول يوجب عدم علمه بما اشتمل عليه ذلك من أصول الدين وفروعه ؛ وجهله بالثاني يوجب أن يدخل في الحقائق المعقولة ما يسميه هو وأشكاله عقليات ، وإنما هي جهليات ، وجهله بالأمرين يوجب أن يظن من أصول الدين ما ليس منها من المسائل والوسائل الباطلة ، وأن يظن عدم بيان الرسول لما ينبغي أن يعتقد في ذلك ، كما هو الواقع لطوائف من أصناف الناس ، حذّاقهم فضلاً عن عامتهم .

وذلك أن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ، ويجب أن تذكر قولاً ، أو تُعمل عملاً ؛ كمسائل التوحيد ، والصفات ، والقدر ، والنبوة ، والمعاد ، أو دلائل هذه . أما القسم الأول : فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل : فقد بيّنه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر ؛ إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين ، وبينه للناس ؛ وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه ؛ وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه ، والحكمة التي هي سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي نقلوها أيضاً عن الرسول ، مشتملة من ذلك على غاية المراد ، وتمام الواجب والمستحب .

والحمد لله الذي بعث فينا رسولاً من أنفسنا ، يتلو علينا آياته ، ويزكينا ، ويعلمنا الكتاب تفصيلاً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين : {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصاً في عقله وسمعه ، ومن له نصيب من قول أهل النار ، الذين قالوا : {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} ؛ وإن كان ذلك كثيراً في كثير من المتفلسفة والمتكلمة ، وجهال أهل الحديث ، والمتفقهة ، والصوفية .

..[إلى أن قال]..

ما الحكمة في أنه لم يوجد فيه من الشارع نص يعصم من الوقوع في المهالك ، وقد كان حريصاً علي هدي أمته ؟

فنقول : هذا السؤال مبني على الأصل الفاسد المتقدم ، المركّب من الإعراض عن الكتاب والسنة ، وطلب الهدى في مقالات المختلفين المتقابلين في النفي والإثبات للعبارات المجملات المشتبهات ، الذين قال الله فيهم : {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} .

وقال (تعالى) : {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} .

وقال (تعالى) : {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} .

وقد تقدم التنبيه على منشأ الضلال في هذا السؤال وأمثاله ، وما في ذلك من العبارات المتشابهات المجملات المبتدعات ، سواء كان المُحدث هو اللفظ ودلالته ، أو كان المحدث هو استعمال ذلك اللفظ في ذلك المعنى ؛ كلفظ "أصول الدين" ، حيث أدخل فيه كل قوم من المسائل والدلائل ما ظنوه هم من أصول دينهم ، وإن لم يكن من أصول الدين الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه – كما ذكرنا – ؛ وأنه إذا مُنع إطلاق هذه المجملات المحدثات في النفي والإثبات ، ووقع الاستفسار والتفصيل : تبين سواء السبيل .

وبذلك يتبين أن الشارع (عليه الصلاة والسلام) نص على كل ما يعصم من المهالك نصاً قاطعاً للعذر .

قال الله (تعالى) : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} .

وقال (تعالى) {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} .

وقال (تعالى) : {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} .

وقال (تعالى) : {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} .

وقال (تعالى) : {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} .

وقال (تعالى) : {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (*) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (*) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} .

وقال (تعالى) {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (*) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} .

وقال أبو ذر : لقد توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً .

وفي صحيح مسلم : أن بعض المشركين قالوا لسلمان : لقد علمكم نبيكم كل شيء ، حتى الخراءة ؟ قال : أجل .

وقال (صلى الله عليه وسلم) : «تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» .

وقال : «ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به ، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم عنه» .

وقال : «ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه خيراً لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه شراً لهم» .

وهذه الجملة يُعلم تفصيلها بالبحث والنظر والتتبع والاستقراء ، والطلب لعلم هذه المسائل في الكتاب والسنة . فمن طلب ذلك : وجد في الكتاب والسنة من النصوص القاطعة للعذر في هذه المسائل ما فيه غاية الهدى والبيان والشفاء .

وذلك يكون بشيئين : أحدهما : معرفة معاني الكتاب والسنة ؛ والثاني : معرفة معاني الألفاظ التي ينطق بها هؤلاء المختلفون ؛ حتى يحسن أن يطبّق بين معاني التنزيل ، ومعاني أهل الخوض في أصول الدين ؛ فحينئذ يتبيّن له أن الكتاب حاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ؛ كما قال الله (تعالى) : {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} .

وقال (تعالى) : {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} .

وقال (تعالى) : {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (*) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (*) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} .

ولهذا يوجد كثيراً في كلام السلف والأئمة النهي عن إطلاق موارد النزاع بالنفي والإثبات ؛ وليس ذلك لخلو النقيضين عن الحق ، ولا قصور أو تقصير في بيان الحق ؛ ولكن لأن تلك العبارة من الألفاظ المجملة المتشابهة المشتملة على حق وباطل ؛ ففي إثباتها : إثبات حق وباطل ، وفي نفيها : نفي حق وباطل ؛ فيمنع من كلا الإطلاقين . بخلاف النصوص الإلهية ، فإنها فرقان فرّق الله بها بين الحق والباطل . ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه ؛ فيثبتون ما أثبته الله ورسوله ، وينفون ما نفاه الله ورسوله ، ويجعلون العبارات المحدثة المجملة المتشابهة ممنوعاً من إطلاقها : نفياً وإثباتاً ؛ لا يطلقون اللفظ ولا ينفونه إلا بعد الاستفسار والتفصيل ؛ فإذا تبين المعنى : أثبت حقه ونفى باطله ؛ بخلاف كلام الله ورسوله ؛ فإنه حق يجب قبوله ، وإن لم يُفهم معناه ؛ وكلام غير المعصوم لا يجب قبوله حتى يفهم معناه .

وأما المختلفون في الكتاب ، المخالفون له ، المتفقون على مفارقته : فتجعل كل طائفة ما أصّلته من أصول دينها الذي ابتدعته هو الإمام الذي يجب اتباعه ؛ وتجعل ما خالف ذلك من نصوص الكتاب والسنة من المجملات المتشابهات ، التي لا يجوز اتباعها ، بل يتعين حملها على ما وافق أصلهم الذي ابتدعوه ، أو الإعراض عنها وترك التدبر لها .

وهاتان الصفتان تشبهان ما ذكره الله (تعالى) في قوله : {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (*) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (*) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (*) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (*) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ}

فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصّله هو من البدع الباطلة . وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ؛ وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ، ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه ؛ ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً لكتاب الله ، لينال به ديناً ، وقال : إنه من عند الله ؛ مثل أن يقول : هذا هو الشرع والدين ، وهذا معنى الكتاب والسنة ، وهذا قول السلف والأئمة ، وهذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان أو الكفاية ؛ ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة ، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله . وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة ؛ كالرافضة والجهمية ونحوهم من أهل الأهواء والكلام ، وفي أهل الأهواء تفصيلاً ؛ مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء ، مع شعبة من حال الأهواء .

وهذه الأمور المذكورة في الجواب مبسوطة في موضع آخر . --]

■ مقدمة ضرورية – ٢

ينبغي أن تعلم منهج أهل البدع والهوى في الاستدلال ، حتى تقارن بين منهج أهل الحق وأهل الباطل .

أما منهج أهل الحق : فقد علمته .. يستدلون بالدليل الصريح المحكم على مسائل الدين التي تلزم عامة المسلمين ، ويؤاخذهم عليها رب العالمين . وما لم يكن فيه دليل : فهو من الفروع التي يختلفون فيها ، ويعفو الله (تعالى) عنها ، ويحصل فيها الاجتهاد .

أما منهج أهل الباطل : فإنهم يستدلون بالمتشابه ، الذي لا دلالة صريحة على ما ذهبوا إليه ؛ ولا يتعرضون للمحكم الصريح ؛ ويجعلونه من الإطلاقات المقيّدة ، أو من الظاهر غير المقصود ، أو ما سوى ذلك .

قال الإمام ابن تيمية في [مجموع الفتاوى : ١٦٠/٢٠]:
[-- فلا تجد قط مبتدعاً إلا وهو يحب كتمان النصوص التي تخالفه ويبغضها ، ويبغض إظهارها وروايتها والتحدث بها ، ويبغض من يفعل ذلك ؛ كما قال السلف : ما ابتدع أحد بدعة إلا نزعت حلاوة الحديث من قلبه --]

لأجل ذلك ، تراهم يستدلون بالآية المتشابهة ، ثم يقيمون عليها جدلاً عظيماً ، ورأياً كبيراً ؛ كل ذلك لأجل تقرير مذهبهم الذي ليس عليه دليل صريح ، لا من الكتاب ولا من السنة .

- قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (إياكم وأصحاب الرأي ، فإنهم أعداء السنن ؛ أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرأي ، فضلوا وأضلوا)

- وقال عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) : علماؤكم يذهبون ، ويتخذ الناس رءوساً جهالاً يقيسون الأمور برأيهم .

- وقال ابن مسعود أيضاً : (إياكم و"أرأيت ، أرأيت" ، فإنما هلك من كان قبلكم بـ "أرأيت ، أرأيت" ؛ ولا تقيسوا شيئاً فتزل قدم بعد ثبوتها)

وأحد أسباب فتنتهم في ذلك أنهم رأوا الفقهاء يستدلون بالدليل المتشابه ، ثم يقيمون عليه رأياً وجدلاً وقياساً حتى يستنبطوا الحكم الشرعي الصحيح ! .. فظنوا أن مسائل الإيمان (أو ما يسمى بالاعتقاد) هي مثل ذلك ! .. يجب أن يجادلوا ويناظروا ويستنبطوا حتى يعلموا ما يعتقدون ! .. لأجل ذلك ينتهي بهم الحال لأن يكفر بعضهم بعضاً ..

قال الإمام ابن حزم الظاهري (رحمه الله) في [الفصل في الملل :٤/١٥٦] واصفاً الخوارج :
[-- كانوا أعراباً ، قرأوا القرآن ، ولم يتفقهوا في السنة ؛ ولذا نجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة بهم من دقائق الفتيا وصغارها --]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في [المنهاج : ٥/٢٥١]:
[-- من عيوب أهل البدع : تكفير بعضهم بعضاً ؛ ومن ممادح أهل العلم : أنهم يخطئون ولا يكفرون --]

وقال أيضاً في [مجموع الفتاوى : ٣/٢٧٩]
[-- والخوارج هم أول من كفر المسلمين ، يكفرون بالذنوب ، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ، ويستحلون دمه وماله . وهذه حال أهل البدع : يبتدعون بدعة ، ويكفرون من خالفهم فيها . وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة ، ويطيعون الله ورسوله ؛ فيتبعون الحق ، ويرحمون الخلق --]

ونحن في هذا الكتاب أدلتنا كلها صريحة ، والحمد لله ؛ وموافقة لأصول الشرع ومقاصده .. ولا نقيم جدلاً على النصوص كي نثبت دلالتها

▪ الباب الأول : إشكالات وشبهات ضلّ بها هؤلاء القوم

خلاصة الباب : كل مبتدع في دين الله (تعالى) لا بد أن يزعم أن هناك من مسائل الإيمان [التي بُعث بها النبي (صلى الله عليه وسلم) لأجل إقامة الحجة على الناس بها] لم تتناولها النصوص الشرعية بالبيان الكافي ، ولا بالتصريح الوافي ؛ وأن مأخذها عندهم هو "الاستنباط" و"الرأي" . وهو بذلك يتهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ضمناً بالتقصير في بيان الدين وتبليغه للناس على أحسن وجه ؛ لذلك يلجأ لمقالات زائدة في الدين يدعو الناس بها ، ولم يقل بها لا النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا أصحابه .

لو أنك تنظر في حال أهل البدع عامة ، وغلاة التكفير خاصة ، لوجدت أنهم أكثر ما ضلوا في باب "الأسماء والأحكام" ؛ فلم يفرّقوا بينهما ، وخلطوا بينها خلطاً عجيباً ، بالجهل والرأي القبيح ، ثم بنوا على ذلك ديناً بالقياس والجدل ، دون أن يكون لديهم أدنى الدليل على ما ذهبوا إليه .

وكذلك ، خلطوا بين وصف الشيء الظاهر وحكمه ، وبين حقيقته الباطنة وحكمها ؛ فزعموا ضرورة ارتباط الاثنين بعضهما ببعض في حكم واحد !

ومن أجل تسويغ بدعتهم وترويجها في الناس ، **اضطروا لاستحداث مصطلحات جديدة ومسائل غريبة ، لم يعهدها المسلمون الأوائل أو يسمعوا بها** ، وهي غير مذكورة في الكتاب ولا في السنة بلفظها ؛ ولا نصّ الشرع على حدّها وتعريفها بحيث ينبني عليه حكم شرعي .

ومسائلهم لا تجد لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال السلف الصالح ، أهل القرون الثلاثة ، من بحثها وقررها وأثبتها ! .. فإن كانت هذه المسائل حقاً هي من أهم ما يجب على المسلمين أن يعلموه ويؤمنوا به ، فلماذا لا نجد لها تصريحاً واضحاً في النصوص الشرعية ؟! .. ولماذا مأخذ هذه المسائل عندهم هي بالاستنباط والاجتهاد والرأي ؟! .. فتأمل ..

فمثلاً ، من ضمن ضلالاتهم أنهم يقولون : لا نحكم بالإسلام على إنسان كان كافراً ونطق بالشهادتين ، حتى نتحقق أنه يعلم معنى "لا إله إلا الله" .. ومن لا يفعل مثل فعلنا : فهو كافر ، لأنه لا يعلم حقيقة معنى شهادة التوحيد ؛ لأن التكفير من أصل الدين !

ولما تجيبهم : هل هذا كان يفعله النبي (صلى الله عليه وسلم) أو أصحابه ؟! .. أي أنهم يرفضون إسلام أي شخص حتى يتحققوا أنه يعلم معنى كلمة التوحيد ؟! .. يقولون لك : لأن العرب كانت تعلم معنى "لا إله إلا الله" ، فلم يكن بحاجة للتحقق من علمهم بها !!! .. مع أنهم يعلمون يقيناً أنه ليس كل من سمع كلمة فقد فهم معناها على النحو الأمثل ، ولو كان من أهل اللسان التي قيلت فيه تلك الكلمة . أوليس النصارى واليهود عرباً ؟ .. فهل كانوا يفهمونها بهذا النحو ، ولم يجدوا غضاضة في نسبة الولد أو الشفيع إلى الله (تعالى) ، ومع هذا يقولون "لا إله إلا الله" ؟

ثم إن هذا كلام شخص لا يعرف حقيقة هذا الدين ، ولا حكمة الله (تعالى) في تبليغه للناس وإقامة الحجة عليهم فيه ؛ ولا في دور النبي (صلى الله عليه وسلم) في البيان التام للدين ، الصالح لكل زمان ومكان .

فإن الله (سبحانه وتعالى) ما ترك مسألة من مسائل الدين ، تجب على عامة المسلمين ، إلا وقد بيّنها باللفظ والمنطق الصريح ، **<u>وتناولها تناولاً خاصاً بالبيان</u>** (أي : عيّنها بالتسمية الخاصة ، ثم

ذكر حكمها .. حتى يكون بيانها واضحاً صريحاً لا لبس فيه) ؛ ووضع لها شروطها وأحكامها التي يجب على المسلمين التزامها والعمل بها .

وقدّر ظروفاً وأحوالاً وحوادث تقع للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، لأجل أن يعلم المسلمون كيف يعملون فيها بما يرضي الله (تعالى) ..

فمثلاً : قدّر للنبي (صلى الله عليه وسلم) أن ينسى فيصلي خمساً للظهر ؛ حتى يعلمهم سجود السهو .

وقدّر له أن يتبنى ولداً وينسبه لنفسه ، ثم جاء النهي عن التبني ؛ وبعدها قدّر لزيد أن يطلق زينب بنت جحش ، فيتزوجها النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك حتى تطمئن قلوب المؤمنين بذلك .

وقدّر له وجود من زنى وسرق وشرب الخمر ؛ كل ذلك حتى يعلم المسلمون كيف يقيمون الحدود الشرعية على العصاة .

وقدّر له وجود المنافقين بشتى أصنافهم ، وأمره بالحكم فيهم ومعاملتهم بما يُرضي الله (تعالى) ..

وقدر له في ظرفه وجود أهل الكتاب ، وعبدة الأوثان ، والصابئة ، والمجوس .. ثم أمره بالتعامل مع كل صنف بما يناسبه .

وقدّر له وجود عصاة المؤمنين ، ووجود من ارتد بعد الإيمان .. ووجود من نطق أو فعل الكفر وهو يزعم أنه مؤمن ..

ناهيك عن وجود السفهاء ، والجهلة ، وضعاف العقول في زمانه (صلى الله عليه وسلم) ؛ كحال كل مجتمع بشري .

وأعلمه ، فوق كل ذلك ، بما كان ويكون في أمته من فتن وأحداث إلى قيام الساعة .. وذلك حتى يُحسن لهم البلاغ والبيان الوافي التام ؛ **بما يعصمهم من الفتن عند حصول الجهل وضعف الفهم عن الله (تعالى) ورسوله (صلى الله عليه وسلم)** .

وقدر له حوادث وأحوالاً في الجهاد والحياة والعلاقات الاجتماعية والسياسية وغيرها كثير : كل ذلك لأجل إقامة الحجة التامة على الناس في كافة شؤونهم ؛ فلا يكون لهم بعد ذلك عذر .

وزيادة على ذلك ، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) دوماً ما يتحيّن الفرص ويترصد الأوقات ليعظ الناس في أمور دينها ويذكرهم بالله (تعالى) ؛ فهو لم يكن فقط مبلّغاً ، بل وأيضاً مذكّراً بما قد بلّغ ؛ ومُربياً ومراقباً وموجّهاً لأصحابه بأحكام الشرع ؛ كل هذا حتى ترسخ تلك المعاني في النفوس ، وتكون حاضرة في وعيهم .

فلو وجد فُرصة من ظرف يُبيّن بها بعض أحكام الله (تعالى) : فإنه ينتهزها ولا يتركها .. هذه كانت مهمته كرسول ، شديد الحرص على هداية أمة ، ودائم التذكير لها بربها في جميع شؤونها .

هكذا اكتمل الدين على أحسن وجه ؛ فلا يستطيع أحد أن يبتدع مقالة ، أو يُحدث حُكماً ، ثم يقول للناس : هذا هو ما يلزمكم من دينكم ، وهو ما أمر به النبي (صلى الله عليه وسلم) ! .. هذا قطعاً يفتري الكذب على الله ورسوله .

فكيف لو علمت أنه كان في زمان النبي (صلى الله عليه وسلم) أعاجم قد أسلموا ؛ كـ سلمان الفارسي ، وبلال الحبشي ، وصهيب الرومي (مع أن أصله عربي ، لكنه نشأ في الروم) .. وغيرهم ؟ .. لماذا لم يسألهم عن معنى "لا إله إلا الله" لما نطقوا بها قبل أن يحكم بإسلامهم ؟! .. **ألم يكونوا ، باعتبار أعجميتهم ، محلّ شك في فهم الحقيقة العربية المنطوقة لتلك الكلمة ؟**

وكيف لو علمت أن من العرب الأقحاح من كان ينطق بها ، وهو يؤمن بأن لله ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقولون ؟! ..

ألم يكن في العرب اليهود والنصارى الذين جعلوا لله (تعالى) الولد ، ومع ذلك يقولون : لا إله إلا الله ؟! ..

ألم يكن فيهم اليهود الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء .. والذين نسبوا إلى الله (تعالى) كل قبيحة ونقيصة ، تعالى الله عن كفرهم علواً كبيراً ..

أهؤلاء كانوا يعلمون معنى "لا إله إلا الله" وهم عرب أقحاح ؟!

فالمقصود هو : لماذا لم يضع الله (تعالى) ولا رسوله (صلى الله عليه وسلم) هذا الشرط على الناس قبل أن يحكم عليهم بالإسلام ؟! .. وهكذا تكون الحجة بيّنة صريحة أنه لا يصح الحكم على إنسان بالإسلام حتى نتحقق من علمه بمعنى التوحيد !

لكن موضع الخلط الحقيقي عندهم هو عدم تمييزهم بين الإسلام الذي يقوم ابتداء وأصلاً بالقلب ، بالصدق والإخلاص والمحبة واليقين والخضوع ، وبه يدخل به الإنسان الجنة ؛ وهذا أمر لا يعلمه إلا الله (تعالى) ؛ وبين الإسلام الذي هو معاملة دنيوية للفرد المحكوم بإسلامه ؛ سواء

من جهة الأفراد بعضهم لبعض ، أم من جهة الجماعة (الحكومة) تجاه هذا الفرد المحكوم بإسلامه ! .. فظنوا أن هذا مثل ذاك ! ..

وهذا التفريق بين الاثنين هو الذي ذكره الله (تعالى) في قوله : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} .. فإن هؤلاء الأعراب كانوا قد أسلموا لأجل الدنيا ؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن أنس (رضي الله عنه) قال : (ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلِموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر . وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)

فهؤلاء أسلموا لا يريدون إلا الدنيا ؛ لأجل ذلك دعاهم صاحبهم لأن يسلموا حتى يظفروا بالدنيا وعطاء النبي (صلى الله عليه وسلم) .. ومع أن هذه كانت نيتهم الظاهرة ، إلا أنه قد حكم لهم الشرع بالإسلام ؛ مع إقراره أن الإيمان لم يدخل في قلوبهم بعد ..

ومثل ذلك حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعطى رهطاً وسعد جالسٌ ، فترك رجلاً هو أعجبهم إليَّ ، فقلت : يا رسول الله ، مالك عن فلان ؟ فوالله إني لأراه مؤمناً ! فقال : أو مسلماً ..

فأمره النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يسميه مسلماً لا مؤمناً .. في دلالة على التفريق بين الاثنين في باب الأحكام .

أرأيت موضع بدعتهم وضلالاتهم ؟! .. وإنك كلما أرجعتهم إلى النصوص الشرعية ، وتطالبهم بالدليل الصريح على مذهبهم ، تأولوا لك بالرأي كما فعلوا هنا ..

ومثل ذلك لما تسألهم عمّا افتروه في دين الله (تعالى) من مسائل قد قرروها بالرأي والقياس ؛ كمقالاتهم في "التكفير" وشروطه ، و"العذر بالجهل" ، وأحكام "الفطرة" ، و"الولاء والبراء" ، وغير ذلك مما يتعلق بها ؛ **لماذا لم يمتحن النبي (صلى الله عليه وسلم) الناس بها ؛ ويراجع مسائلها معهم بالتذكير والوعظ والعمل** ، كما فعل في مسائل هي أقل شأناً — في ظنهم — من ذلك بكثير ؟!

ثم تجدهم أيضاً يُكثرون من الاحتجاج بـ "البديهة" ، و"المعلوم من الدين بالضرورة" ، و"العقل" ، و"الفطرة" .. كل ذلك بسبب إفلاسهم من النصوص الشرعية الدالة على بدعتهم ؛ وجفائهم للقرآن والسنة ، وعدم توفيق الله (تعالى) لهم في اكتساب الحكمة وتحصيلها .

ولو أنهم تدبروا القرآن ، لوجدوا أن كثيراً من مسائله هي من المعلوم بـ "البديهة" و"العقل" ؛ لكن الله (سبحانه وتعالى) قد أثبتها في كتابه بالنص الصريح ، حتى لا يحتج أحد بضعف "بديهته" و"عقله" بعد ذلك ! .. كقول الله (تعالى) : {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} ؛ وكقوله (تعالى) : {أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (*) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} .. وكقوله (تعالى) : {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (*) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} .

والقرآن يفيض بمثل هذ المسائل لمن راجعها وتدبرها ! .. **فلا يوجد في الحقيقة احتجاج بالبديهة والعقل إلا على الكافر الذي لا يؤمن بالقرآن أصلاً** .

أما المسلم ، فجميع دينه مُثبت بالنص الشرعي الصريح المحكم ؛ وليس عليه إلا الاتباع ، وأن يقول : سمعنا وأطعنا .

■ الباب الثاني : مصطلحات يجب تعريفها

هناك عدة مصطلحات أصلية في باب التوحيد يتلاعب بها الغلاة لأجل التلبيس على الناس وتقرير مذهبهم الباطل ؛ وهي : **العبادة** ، **والتوحيد** ، **والشرك** ، **والإيمان** ، **والإسلام** ، **والكفر** ، **والطاغوت** ، **والتكفير** ، **وأصل الدين** ، **والكفر بالطاغوت** . وسنتناول كل مصطلح بالبيان والشرح على حدة ، إن شاء الله (تعالى) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنك حتى تفهم أي مسألة من المسائل ، ينبغي ابتداءً تفكيكها إلى أصولها الأولى ، وتعريف مصطلحاتها تعريفاً أصولياً صحيحاً ؛ ثم تنظر بعد ذلك في الأحكام التي تدل أو تنبني عليها .

- **العبادة** : هي أن تطيع الله (سبحانه وتعالى) بالنحو الذي أمرك به ، وعلى الوجه الذي يُرضيه عنك ، ويقبله منك ، ويقرّبك منه . فلو أطعت مخلوقاً في أمر يُرضي الله (تعالى) ، وعلى الوجه الذي أمرك الله به ، فهي عبادة لله (تعالى) . ولو أطعت الله (عز وجل) على وجه لا يرضاه ، فهي ليست عبادة له ؛ إذ أنها غير مقبولة . لذلك ، لا تسمى طاعات المنافقين والمشركين عبادة لله (تعالى) ، لأنها غير مقبولة . [لمزيد من التفصيل ، أرجو مراجعة رسالتي : "حقيقة العبادة في الإسلام".]

- **التوحيد** : هو صرف العبادة لله (تعالى) وحده . والعبادة هي طاعة الله (تعالى) بما يرضى ، كما بيّنا آنفاً .

- **الشرك** : هو أن تخرج من طاعة الله (تعالى) ، فتطيع غير الله (تعالى) في ما لا يرضاه منك من المعاصي . وهو أيضاً : تقديم طاعة غير الله (تعالى) على طاعة الله (تعالى) . فصلاة المرائي شرك ، لأنها طاعة للهوى في غير رضى الله (تعالى) ، بل في معصيته .

- **الإيمان** : هو انشراح الصدر بالإذعان والانقياد والخضوع ، بعد حصول التصديق ؛ وأصله القلب . وهو حُكم باطن غيبي لا يعلمه إلا الله (تعالى) . وقد يُطلق لفظه ليشمل الأعمال الظاهرة .

- **الإسلام** : هو الاستسلام والخضوع لله (تعالى) بالطاعة ، وأصله على الجوارح الظاهرة . وهو حُكم ظاهر مُشاهَد ، يحكم به الناس بعضهم على بعض . وقد يُطلق لفظه ليشمل الأعمال الباطنة من الإيمان .

- **الكفر** : هو جحود حق الله (تعالى) ؛ وقد يكون بالقلب ، أو القول ، أو الفعل .

- **الطاغوت** : هو رأس الطغيان في أي أمر . والطغيان هو مجاوزة الحد بالمعصية . فكل ما يدعو إلى معصية الله (تعالى) فهو طاغوت ، سواء أكان بشراً أم حجراً أم شجراً . ويقال فيه أيضاً أنه كل ما يصرف الإنسان عن الإيمان بالله (سبحانه وتعالى) ؛ والطاعة والعمل الصالح هو الإيمان كله ، **فما يصرف عنه فهو طاغوت** . ولفظة "الطاغوت" هي لفظة وصفية لمعنى قد وردت له مرادفات عدّة من الألفاظ ؛ هي : الشركاء ، الأنداد ، الآلهة ، الأولياء ، الأصنام ، الأوثان ، السادات والكبراء ، الأرباب ، الشفعاء . **وكونها لفظة وصفية يقتضي أن نفس اللفظ لا ينبني عليه حكم شرعي ، بل الحكم الشرعي موقوف على المعنى** [لمزيد من التفصيل ، أرجو مراجعة رسالتي : "حقيقة الطاغوت في الإسلام".]

- **التكفير** : هو مجموعة من الأحكام الشرعية تُعامل بها من يستحقها في الظاهر . ومن هذه الأحكام : بطلان الصلاة خلفه ، وتحريم الاستغفار له بعد موته وكذلك الصلاة عليه ، وتحريم إنكاحه بنات المسلمين ، وعدم جواز وراثته من المسلم ، وعدم تكافؤ دمه مع دم المسلم ، وفرض الجزية عليه ، وتحريم تقليده ولاية على المسلمين ، وتحريم اتخاذ البطانة منهم ، وغير ذلك كثير من الأحكام الشرعية التي يُعامل بها الكافر . وإطلاق اسم "كافر" هو واحد من هذه الأحكام الشرعية ، وإن كانت من باب الاختيار لا الإلزام . وهذا الكتاب يتناول هذا المصطلح بمزيد من الشرح والتفصيل والتفنيد للشبهات الموضوعة عليه .

- **أصل الدين** : هو المبدأ الذي تنطلق منه أحكام الدين ، وهو القاعدة أو الأساس التي تُبنى عليه شرائع الدين كله ؛ فكل حُكم أو شرع من الدين له ارتباط وثيق بهذا الأصل . أما عند الغلاة ، فإن هو الحد الأدنى الذي يكون به المرء مسلماً عند الله (تعالى) ، ويستحق بموجبه دخول الجنة . وهو مصطلح حادث ، لا ذكر له في الكتاب ولا السنة ، وأكثر ما يُستعمل في مباحثات "العذر بالجهل" . [راجع الباب الثالث من هذا الكتاب لمزيد من التفصيل]

- **الكفر بالطاغوت** : هو أن تترك طاعة من يأمرك بمعصية الله (تعالى) ، فتلتزم بطاعة الله وحده ، لا شريك له .

▪ الباب الثالث : تحديد مفهوم "أصل الدين"

إن مصطلح "أصل الدين" بهذا اللفظ لا وجود له في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال السلف الصالح أهل القرون الثلاثة . وهو مصطلح حادث لم يظهر ك "مصطلح" إلا في العصور المتأخرة ، بعدما أثيرت قضايا التكفير ومتعلقاتها من أحكام الفطرة ، والعذر بالجهل ، وما سوى ذلك .

ولعلك تجد استعمال هذا اللفظ في كتب المتأخرين ، كابن تيمية (رحمه الله) وغيره ؛ لكنهم لم يقصدوا الاصطلاح على معناه ؛ إنما وردت هذه اللفظة كتعبير وصفي بلاغي ؛ لا على أنه "مصطلح" له شروط وضوابط ، وتقوم به أحكام شرعية ، كما يفعل الغلاة اليوم .

ولتعلم أن بحث مادة هذا "المصطلح" ووضع الضوابط والشروط والأحكام له : لم يكن من منهج المسلمين الأوائل ، ولم يأت كتاب ولا سنة به .. بل هو من الأحوال البدعية التي أول من قال بها هم المعتزلة ؛ الذين قسموا الدين إلى أصول تُدرك بالعقل (ويسميها الغلاة الفطرة) ، وفروع تُدرك بالشرع !

وتأمل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في آخر هذا الباب ، فإنه نفيس جداً . فإنه وإن كان يقصد البدع المنطقية في الأسماء والصفات ، إلا أن مسلك هؤلاء المبتدعة هو نفسه الذي اتخذه غلاة التكفير في باب "أصل الدين" وما بنوه عليه من أحكام التكفير .

وعموماً ، إن قيل لي في معنى "أصل الدين" ، فإني أقول فيه : إنه الأساس الذي تنبني عليه جميع أحكام الدين ، والمنطلق الذي تصدر عنه ؛ ولا انفكاك لأي حكم شرعي عن هذا الأصل ، بل الارتباط به وثيق ، ومتى ما انقطع هذا الارتباط : لم يكن ذلك من دين الله (تعالى) في شيء .

وعلى ذلك ، ف "أصل الدين" هو الأمر الذي تدور عليه جميع أحكام الدين ؛ **ويُمكن أن يوصف بأنه "حقيقة الدين"** ؛ وكل حكم من أحكام الدين إنما هو صورة عن هذا الأصل وتحقيق له ؛ وهو الشرط الأساس الذي يحاسب به الله (تعالى) عباده على أعمالهم الصالحة ويثيبهم عليها ؛ وهو : "لا إله إلا الله" ؛ وتحقيقه هو بالإيمان به بالقلب ، وتصديقه بالعمل الصالح .

ولك الآن أن تفهم آيات كثيرات مثل قول الله (تعالى) : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} .. وقول الله (تعالى) : {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} .

فالإيمان هنا هو "أصل الدين" ؛ والعمل بمقتضى هذا الإيمان هو "العمل الصالح" ، وهو العمل بأوامر الشرع وأحكامه . ونقصان العمل الصالح القائم على الإيمان يستلزم نقصان أصل الدين ؛ وزيادته تستلزم الزيادة فيه ؛ كما هو ثابت عند أهل السنة والجماعة في أن الإيمان يزيد وينقص .

وكلما بلغ الإنسان نص شرعي ؛ كان الإيمان به واجباً عليه ، وداخلاً في "أصل الدين" عنده .. لأجل ذلك ، إن كفر بهذا النص ولم يؤمن به : انتقض أصل دينه كله ، وحبط عمله .

وعليه ، فإن الدين بأحكامه جميعها ، داخل في المعنى العام لكلمة التوحيد : "لا إله إلا الله" .
وإن مدى تحقيق "أصل الدين" ورتبته عند المرء هو أمر غيبي لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى) ؛ وليس للناس من غيرهم سوى الحكم بما ظهر من عمل ، بحسب ما نصّت عليه الشريعة .

➢ فصل : "أصل الدين" عند الغلاة

"أصل الدين" عند الغلاة هو ما يدركه العقل المجرد (وهو الفطرة عندهم) ؛ دون الحاجة إلى النص الشرعي لإدراكه وقيام الحجة فيه على مخالفه . بل نفس العقل عندهم حجة لازمة ، قاطعة للعذر ؛ وإن لم يبلغ صاحبه النص الشرعي .

ويصفون "أصل الدين" بأنه : الحد الأدنى الذي لا يكون المرء مؤمناً إلا به عند انعدام النص الشرعي !

وحتماً ، تقريرهم هذا لمعنى "أصل الدين" هو عقلي بحت ، لا دليلَ شرعياً صريحاً عليه .. وإنما هي استنباطات وتكلفات وتعمقات ما أنزل الله (تعالى) بها من سلطان ..

○ مثال الرجل يعيش في بادية نائية وحجية الفطرة

ويضربون لذلك مثالاً برجل يعيش في بادية منقطعة ، لم يصله فيها كتاب ولا شرع ، فالحد الأدنى الذي يدخل به الجنة وينجو من عذاب السعير ، هو ما اصطلحوا على تسميته بـ "أصل الدين" !!! ..

انظر إلى مستوى التكلف والتعنت الذي اضطرهم لبحث إيمان رجل في أقصى الأرض وجعله حجة على البشرية جمعاء !

وهذا الرجل في نفس الأمر هو حجة عليهم لا لهم ، لو كانوا يعلمون ..

فإنهم قد زعموا أن ما استوجبته الفطرة عنده من علم ، هو ما يسمونه بـ "أصل الدين" .. لكنهم غفلوا أن الفطرة تستوجب علوماً أخرى بالضرورة ؛ من تحريم الظلم ، والفحشاء ، والبغي ، والعدوان بغير حق ، والكذب ، والغدر ، والخيانة ، وغير ذلك .. **وكل ذلك قُبحه معلوم بالضرورة من الفطرة** .. بل إن نفس مبدأ معصية الله (تعالى) معلوم بالفطرة أنه قبيح ومذموم .. لذلك ، تجد المشركين يُنكرون أنهم يعصون الله (تعالى) ، بل يطيعونه في شركهم !

وتوجب – في المقابل – البرّ بالوالدين ، والإحسان إلى من أحسن إليك ، والصدق ، والأمانة ، ونصرة المظلوم ، وغير ذلك من أعمال الخير والصلاح .. **وكل ذلك حُسنه معلوم بالضرورة من الفطرة** .. بل إن نفس مبدأ طاعة الله (تعالى) والخضوع له : معلوم بالفطرة أنه جميل وممدوح ..

وكل هذه الأمور في شريعة الإسلام داخلة في المعنى العام لكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ؛ والتي تعني : لا طاعة إلا لله .

لذلك ، فلما يزعم الغلاة أن ما يسمونه "الشرك الأكبر" هو فقط ما تعلم الفطرة المجردة قبحه ؛ فإنهم يُكابرون على المعارف البدهية التي يعلمها الناس بالضرورة من أنفسهم .

إن تقرر ذلك ؛ **فإنهم في هذا الموضع واقعون في ورطة عظيمة ما لهم منها من مخرج !** .. وهي أن يقال لهم : هل ما استوجبته الفطرة من عِلم ، يؤاخذ الله (عز وجل) به صاحبه أم لا يؤاخذه ؟!

فهل يؤاخذه بما استحلّه من محرّمات الفطرة ، من أفعال الظلم والفحش والبغي ؛ كالسرقة ، والغدر ، والخيانة ، وعقوق الوالدين ، وانتهاك الأعراض ، وسفك الدماء ، وسائر الإفساد في الأرض ؟! .. أم أنه مرفوع عنه القلم ، وغير مؤاخذ به ؟!

فإن قالوا إنه غير مؤاخذ به ؛ فهل يُنكرون أنها أمور معلومة بالفطرة أم لا ؟! .. فإن أثبتوا أن الفطرة تعلمها – وهم قد جعلوا علم الفطرة موجباً للحجة القاطعة للعذر في ما يسمونه هم "التوحيد" ، مع أن الدين كله من التوحيد — : فلماذا أخرجتم بعض العلوم التي استوجبتها الفطرة عن الإلزام والاحتجاج ؛ وكلها ذات مخرج ومسلك واحد ؟!

هذا لو افترضنا أن هذه الأمور أصلاً لا علاقة لها بعبادة الله (تعالى) وتوحيده ؛ فكيف لو علمت أنها من صُلب الإيمان في دين الإسلام ؟!

فالفطر جميعها تعلم أن الله (تعالى) يُحب الخير ، ويُبغض الشر .. وأن الناس إنما تتقرب إلى ربها بفعل الخيرات والصالحات (عبادة) ، وتبتعد عن ربها وتستوجب غضبه وبغضه بفعل الشرور والمنكرات (معصية) ..

فكل أعمال البر والخير التي يرضاها الله (تعالى) وأمر بها : هي عبادة ؛ وكل أعمال الشر والفساد : هي شرك ..

لذلك ، نريد أن نعرف حقاً ، ما هو "أصل الدين" عندكم ؟ وكيف تحدده الفطرة وتميّزه عن سائر ما صحّ لديها من علوم ؟!

فإن قالوا : بل علوم الفطرة هذه واجبة عليه أن يلتزمها ، ويأثم بمخالفتها ؛ كما يقتص الله (تعالى) من البهائم التي ظلمت بعضها ، وذلك لأنه معلوم بفطرتها أن هذا قبيح ومذموم . **وحسبك من وجوبها عليه أن لها نفس المصدر الذي ثبت به أصل الدين (التوحيد)** .

وكلامهم هذا يقتضي بالضرورة أن حجية الفطرة عندهم هي بمنزلة حجية الكتاب ! .. فالكتاب إنما نزل لأجل إقامة الحجة على الخلق في باب التوحيد ؛ والفطرة عندهم هي بنفس السبيل ..

وإن كان مُنكر أحكام الكتاب كافراً ، فإن مُنكر أحكام الفطرة أيضاً كافر ..

••• ونحن الآن أمام رجلين •••

رجل قد قامت عليه الحجة بالرسالة ؛ وبلغه النص الشرعي بتحريم عقوق الوالدين ..

ورجل آخر قد قامت عليه الحجة بالفطرة ؛ وصحّ لديه بفطرته قُبح عقوق الوالدين ..

فالأول إن أنكر النص وجحده : كان كافراً ، وانتقض أصل دينه .. **ذلك أن أصل دين المسلم قائم أساساً على النص الشرعي والإيمان به** ؛ لذلك إن كفر بنص واحد : كان أصل دينه منتقضاً ..

فهل يقولون الشيء نفسه في الثاني ؟!

إن قالوا نعم ، لزمهم أن يجعلوا "بر الوالدين" ضمن ما يسمونه "أصل الدين" .. وإن نفوا أن يكون كافراً : فقد تناقضوا ؛ إذ أوجبوا العلم الذي تقتضيه الفطرة وجعلوه حجة بنفسه ؛ ثم هم يقولون هنا إنه غير واجب . وإننا نعود بذلك لنقطة البداية ، ونسألهم : فما أصل الدين عندكم إذن ؟!

فإن عادوا وقالوا : الحد الأدنى .. نقول : كل إنسان "الحد الأدنى" لديه يختلف عن غيره ! .. والفطرة تستوجب علوماً متنوعة ، تثبت عند البعض وتنتفي عند البعض الآخر ، بحسب سلامة فطرته وصفاء عقله ! .. كما أن مسمى "الحد الأدنى" عند المسلمين يختلف بوجود النص الشرعي ؛ فمن بلغه حرمة الخمر ، صار الإيمان بتحريم الخمر من هذا "الحد الأدنى" ؛ ومن لم يبلغه : كان تحريم الخمر غير داخل في "الحد الأدنى" هذا ..

ثم تراهم يقولون : ما دامت الفطرة تعرف قُبح "الشرك" ، وأنه مخالف لكلمة التوحيد ؛ فلا بد أنها تعرف أن فاعله حتماً كافر !!

ودائماً لما يقولون هذا نسألهم ابتداءً عن معنى التكفير ، ومعنى كافر ! [راجع الباب الخامس] .. وبعدها نقول لهم : وهي تعرف قُبح السرقة والكذب والظلم والبغي ؛ فهل تعرف أن فاعل ذلك مخالف لكلمة التوحيد ؟

|– استدراك –|

ويقال لهم : هذا الذي يعيش في بادية نائية ، وليس معه كتاب يتبعه ، مجرد فطرة أخذ بها وآمن بمقتضاها .. بأي شريعة يحكم في أموره ، وأي منهاج يسيّر به شؤون حياته ؟! .. أم أن هواه وشهواته هي الحاكمة له ؛ فما أحلّه الهوى : أحلّه هو ؛ وما حرمه : حرّمه ؟! .. والأبلغ من ذلك لو كانت قبيلة أو مجتمعاً نشأوا في تلك البادية ! .. لا بد لهم من أحكام يديرون بها علاقاتهم الاجتماعية ، ومنهج يتحاكمون إليه عند الاختلاف ! .. فبأي شريعة يحكمون ؟! .. أوليس التشريع مع الله (تعالى) شرك أكبر ؟

○ اعتراضات ومآخذ على مفهوم "أصل الدين" عندهم

وهناك مآخذ واعتراضات صريحة ينبغي لهم أن يجيبوا عنها قبل أن يبحثوا هذا الأمر ؛ وهي :

أولاً : بافتراض صحة تقريركم العقلي ، هل جاء النص الصريح يؤيّد ما ذكرتموه ؟! أم أنه تأويلكم وفهمكم للنصوص ؟! .. فالمسلم الحق يؤمن حتماً أن النصوص كافية وافية في إقامة الحجة على الخلق ؛ وهي مُحكمة في لفظها ، صريحة في دلالتها ، بيّنة في حجتها .. وأن حجتها للمسلم غير مرتبطة بالعقل بقدر ارتباطها بثبوت النص . **فكل التقريرات العقلية اللازمة للمسلم في دينه مُثبتة بالنص المحكم** . ذلك أن الدين كامل ، والحجة تامة ، كلها مثبتة بالنصوص المحكمة الصريحة ؛ وهذا ما يُفرّق أهل السنة والجماعة عن أهل البدع والفُرقة ؛ فهل لديكم مثل هذه النصوص ؟! [راجع الفصل التالي ففيه نتناول أشهر استدلالاتهم مع تفنيدها]

ثانياً : لو كان هذا الأمر من مُهمات الدين ، لوجدت اعتناءً بالغاً من النبي (صلى الله عليه وسلم) به ، وحرصاً شديداً منه على تعليمه لأصحابه حتى يفهموه حق الفهم ، ويفهمه من بعدهم فلا يضلوا .. ولا يترك الأمر للاستنباط العقلي والتعمق في بواطن النصوص .. إذ أن هذا هو أصل ما بُعث به ، وأهم ما دعا إليه ..

فلا هو استعمل مصطلح "أصل الدين" ، ولا هو قرر الحد الأدنى منه ، وما يُعذر فيه بالجهل وما لا يُعذر ، ولا دعا الناس إلى ذلك ؛ ولم يضع الضوابط والشروط والأحكام على هذا المصطلح ! .. ولم يقل بعد ذلك : من لم يعرف الضوابط والحدود لـ "أصل الدين" فهو كافر ؛ ومن لم يكفره فهو كافر !! .. ولا فعل ذلك أصحابه ولا أهل القرون الثلاثة الفاضلة .. لذلك لا تجد في كلامهم هذه التقريرات البدعية على نحو ما ينزع إليه هؤلاء الغلاة .

ثالثاً : هم يجعلون "أصل الدين" جزءاً منفصلاً عن بقية الدين ؛ ويقولون أنه ما يثبت بالعقل المجرد دون الحاجة إلى النص ! .. فيقال لهم : طيب ، أثبته العقل المجرد ؛ **فهل جاء النص بتقريره أم لم يجئ ؟!** .. ولو قلتم أنه قد جاء النص به : فهل على المسلم – بعدئذ – أن يتبع العقل أم النص في إثباته ؟! .. فإن قالوا : بل يتبعهما جميعاً ؛ نقول : من يكون حاكماً على

من ؟! .. هل النص حاكم على العقل ، أم العكس ؟! .. وهنا الورطة الحقيقة عندهم ! .. فهذا يثبت أن "أصل الدين" عند المسلم هو ما يُثبته النص ، لا العقل .. فذهبت بذلك تقريراتهم العقلية أدراج الرياح ؛ ويتحتم عليهم الالتزام بالنص الشرعي للتدليل على بدعتهم ؛ وأنى لهم هذا !

فإن بلغوا هذا الحد : فإن "أصل الدين" عند المسلم ، الذي آمن بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً : هو "اتباع النص الشرعي" ؛ (والاتباع هو بالقلب والجوارح) .. لأجل ذلك ، فإن كل نص شرعي بلغ المسلم : فقد وجب الإيمان به واتباعه ، وإلا صار بالكفر به كافراً ، و"أصل دينه" منتقضاً .

- قال الله (تعالى) : {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (*) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

- وقال الله (تعالى) : {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} .

- وقال الله (تعالى) : {ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ}

وخلاصة الأمر هي : ما دام أن النصوص كافية في بيان وإثبات "أصل الدين" ، فإنه لا حاجة للعقل أو "الفطرة" للاستدلال عليه ؛ **ما دام من تُخاطبه يؤمن بالقرآن والرسالة** ؛ فلماذا كل هذا الجدل والمراء على هذا المعنى ؟! .. هذا من أكبر الأدلة على إفلاسهم من الأدلة ، فهم يتمسكون بالمتشابه ثم يقيمون عليه جدلاً عظيماً لأجل تقرير بدعتهم .

وسنبحث استدلالاتهم في الفصل التالي ، لترى مدى وهاءها وهفاتها وسوء مسلكها .

○ **قولهم في معنى "أصل الدين"**

وهم يقولون إن "أصل الدين" هو "لا إله إلا الله" أيضاً ؛ لكن مستقاه عندهم هو العقل المجرّد ، كما ذكرنا آنفاً ؛ ثم فرّعوا عليها مسألة : "العذر بالجهل" ؛ وأنه ما دام "أصل الدين" يؤخذ بالعقل ، فإن المخالف لهذا الأصل العقلي يُدرَك بالعقل أيضاً أنه كافر ! ..

وما دام العقل هو الحجة اللازمة عندهم في هذا الباب ، فإن من لم يكفّر هذا الكافر ، الذي لم يحقق أصل الدين ، فهو كافر أيضاً مثله .

وبهذا الرأي القبيح يقعون في ورطات كبيرة وتخبطات عظيمة في تقرير هذه المسائل وفق النصوص الشرعية .. لأجل ذلك : فإنهم أكثر ما يُبغضون أن يُلزمهم الإنسان بالنصوص الشرعية .

ومن هذه الورطات التي يقعون فيها بهذا التقرير :

أولاً : أن "أصل الدين" ، الذي هو الإيمان ، أساسه في القلب ؛ وهو أمر غيبي لا يعلمه إلا الله (تعالى) .. بينما هم يحكمون على من لم يحقق هذا الأصل بما ظهر منه من أقوال وأفعال اعتبروها ناقضة لأصل الدين هذا ؛ وهذا حكم ظني لا يقيني ! .. فكيف يجعلون "الحكم الظني" من المسائل الإيمانية (الاعتقادية) التي مبناها على اليقين والحقيقة الباطنة ، ثم يُلزمون الناس جميعاً أن يؤمنوا بها ؟!

أ – مثال توضيحي – أ

وحتى تفهم الأمر على نحو أفضل .. إليك المثال التالي ..

نحن نؤمن يقيناً وحتماً أن الخمر في الإسلام حرام .. وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ..

مرّ ثلاثة رجال بقارورة زجاج يوضع فيها الخمر ، أُلصق عليها ورقة تفيد أن ما بداخلها خمر ..

فأما الأول ؛ فإنه أخذ بظاهر الأمر ، وحرّمها على نفسه ، باعتبارها خمراً .. وهو بذلك مصيب مأجور .. وهذا حكم ظني .. أي : هو يغلب على ظنه أنه خمر ، فحرّمه بمقتضى ذلك ..

وأما الثاني ؛ فإنه توقف فيها حتى يتحقق من باطنها ؛ فإنه ظن أن واضعي القارورة كاذبون ؛ واعتبرها من الشبهات التي ينبغي اجتنابها .. وهذا سلك مسلك السلامة ، وإن لم يحكم بشيء في شأن هذه القارورة .. وهذا أيضاً حكم ظني ، لكن مردّه إلى الشك ..

وأما الثالث ؛ فإنه قد حصل لديه علم زائد بمحتوى القارورة ، وعلم أنهم قد وضعوا فيها عصيراً لا خمراً .. وهذا لا وزر عليه إن أباح تلك القارورة لنفسه ولم يحرّمها .. وهذا أيضاً حكم ظني ، فإن احتمال الخداع وارد ، أنهم أوهموه أنه عصير وهو في حقيقته خمر ..

فالقارورة واحدة ، والظاهر واحد ، والأحكام الثلاثة مختلفة .. وصاحب كل حكم لا إثم عليه في حكمه .. ولا يستطيع أحد أن يُلزم أحداً بحكمه هذا ؛ فيتهمه أنه لا يؤمن بحرمة الخمر ، أو أنه لا يؤمن بحلّ العصير !! .. فالأحكام الظاهرة تؤخذ بالظن الغالب ، لا باليقين .. أما مسائل الإيمان (الاعتقاد) فإن مردّها إلى النص الشرعي ، وهي أحكام يقينية ..

ثانياً : "الكافر" عند الله (سبحانه وتعالى) هو الذي استحق عقوبة الكفر ، بحبوط عمله وتخليده في النار .. وليس هو فقط الذي فعل الكفر ! .. فإن كثيراً ممن يفعلون الكفر لا يستحقون عقوبته ، وليسوا كفاراً عند الله (تعالى) ! .. كالمعذور بعذر شرعي ، كالإكراه أو الحداثة أو غياب العقل وغير ذلك .. جميعهم فعلوا الكفر ، وليسوا في حكم الكفار عند الله (تعالى) .. **ومسألة حبوط العمل الصالح بالكفر لا تُدرك بمجرد العقل** ؛ بل لا بد فيها من النص الشرعي ! .. فإن كان كذلك ، فكيف يجعلون "تكفير" المخالف لأصل الدين (الذي يعني إحباط عمله) من مقتضيات العقل الضرورية ؟!

أما "الكافر" عند الناس ؛ فهو الذي يستحق المعاملة بالأحكام الخاصة بالكفار ، دون نظر إلى الباطن .. فهل هذه الأحكام أيضاً مما تُدرك بالعقل المجرد دون النص ؟!

ثالثاً : من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن التكفير لا ينزل على مستحقه حتى تتحقق فيه شروط وتنتفي عنه موانع ؛ فهل هذه الشروط والموانع معلومة بمجرد العقل ؟!

خذ مثلاً "الإكراه" ؛ لا يمكن تقريره بالعقل المجرد ؛ **خاصة إن علمت أن جمهور العلماء على أنه عذر فقط في شريعة الإسلام دون غيرها من الشرائع** . وانظر إلى العقل السليم كيف ينظر إلى عذر "الإكراه" ..

قال الإمامُ أبو الوفاءِ بن عقيل الحنبلي (رحمه الله) في كتابه "الفنون":
[-- لقد عظَّم اللهُ ابنَ آدم ، حيث أباحَه الشِّركَ عند الإكراه ! فمَن قدَّم حُرمةَ نفسِك على حُرمتِه ، حتى أباحَك أن تتوقَّى عن نفسِك ، بذِكره بما لا ينبغي له (سبحانه) : لحقيقٌ أن تُعظِّم شعائرَه ، وتُوقِّر أوامرَه وزواجرَه . --]

فالعقل المجرد ينص على وجوب التضحية بالنفس لأجل حفظ حرمة الله (تعالى) ؛ لذلك كان من يفعل ذلك أعظم أجراً وأحبّ إلى الله (تعالى) من أخذ برخصة الإكراه .. ولكن ، من رحمة الله (تعالى) أنه جعله عذراً مانعاً من الكفر ! .. فهل يُدرك ذلك العقل حقاً ؟!

رابعاً : أين العقل من الحُكم على أبناء المسلمين ومجانينهم بالإسلام ، وعلى أبناء المشركين ومجانينهم بالكفر ، وهم جميعاً لا يُدركون ما رب وما دين ؛ وهم في مستوى "عقلي" واحد يسوده الجهل المطبق ؟!

فهل أبناء المسلمين ومجانينهم حققوا "أصل الدين" حتى يحكم لهم بالإسلام ؟! .. وهل مثلهم في المشركين قد نقضوه حتى يُحكم لهم بالشرك ؟! .. ثم هل كل هذا يُدرك بالعقل المجرد ؟!

وعلى أي حال ، أرجو مراجعة الباب الخامس بعنوان : "معنى التكفير" ؛ ففيه فوائد عزيزة ..

➢ فصل : أدلة الغلاة على مفهوم "أصل الدين"

يصف الغلاة "أصل الدين" بأنه :

- الميثاق الذي أخذه الله (تعالى) على الناس في طور الذر قبل أن يخلقهم .
- أول ما دعت إليه الرسل أقوامها .
- هو العروة الوثقى .
- ما لا عذر بالجهل فيه ؛ لكن يصح الإكراه فيه عذراً !

- الحد الأدنى الذي يمكن أن يدخل المرء به الجنة .

وإنا لن نخوض طويلاً في شبهاتهم وأقوالهم الفاسدة في هذا الشأن ؛ إذ أن نقضها جميعاً سهل ميسور ، بإذن الله (تعالى) .. فإن الرد عليهم في هذا الموطن لا يختلف عن سابقه ..

فأول ما يقال لهم : أين يكون تحقيق "أصل الدين" ، الذي هو الفطرة ؟ .. أفي القلب ، أم على الجوارح ؟!

فهذا الرجل الذي يعيش في البادية النائية ، ولا يعرف من شعائر الدين شيئاً ، وقد حقق "أصل الدين" عندكم .. أين حققه ؟! .. على جوارحه أم في قلبه ؟ .. لا بد أن يقولوا : في قلبه ..

ثم يقال لهم : وكيف تحكمون عليه بكفر أو إيمان ؟! هل بظاهره أم يجب أن تشقوا عن قلبه ؟ .. سيقولون بظاهره ..

ويقال لهم : أليس من احتمال أن ينافقكم في ظاهره طمعاً في دنيا ، فيكون كافراً في الباطن ؟ أو يتقيكم بظاهره خشية أن تكونوا عدواً ، فيكتم إيمانه ولا يظهره لكم ؛ أو يُظهر لكم ما يوهم بكفره ؟! .. سيقولون : بلى ..

فنقول : إذن ، أنتم تحكمون عليه بأعماله الظاهرة ، لا على إيمانه الذي في صدره ؛ فإن هذا ما لا سبيل لكم إليه . **فلا يمكن أن تنفي أو تثبت إيماناً لأحد من الناس إلا بالوحي الخاص المُعيِّن لذلك الإنسان** ؛ كالوحي نصّ على العشرة المبشرين بالجنة ، أو الوحيّ نصّ على كفر الشيطان ، وفرعون ، وأبي لهب ، وعبدالله بن أبي بن سلول ، وغيرهم .. لا شيء يحكم على بواطنهم غير الوحي الخاص الذاكر لهم على التعيين .

فإن كان كذلك ؛ يبقى السؤال الأصعب .. كيف يكون "التكفير" عندكم ؟! .. أهو اسم تطلقونه بلا معنى ؟ .. أم هو معنى تعتقدونه في المحكوم بكفره ؟! .. أم هو أحكام شرعية تُعاملون بها المحكوم بكفره ؟! [راجع الباب الخامس في تفصيل هذا الأمر] .

○ نسبة "التكفير" إلى الاعتقاد

أما "الاعتقاد" ، فقد فرغنا من بيان فساد قول من يجعل هذه المسألة من الاعتقاد ؛ وعلى ذلك عدة أدلة ، هي :

- **اختلاف الحكم الظاهر عن الحقيقة الباطنة** ؛ فالأفعال الظاهرة ليست دلالة حتمية على الحقيقة الباطنة .
- **والاعتقادات تُبنى على حقائق أصلية باطنة** ، لا على أحكام ظاهرة .
- **وهي أيضاً تُبنى على ثوابت لا تتغير** ، لا على متغيرات تتبدل أحوالها وأحكامها ؛ فقد يؤمن اليوم من كان كافراً أمس ؛ ويكفر غداً من هو مؤمن اليوم ! .. وقد يختلف حكمك عن حكم غيرك بحسب ما تحصّل عندكما من العلم في هذا الشخص ! ..
- **لا يمكن التوقف فيه** ؛ وقد علمنا من كتاب ربنا أن الكافر بالأمس لو ألقى علينا تحية الإسلام اليوم ، فإننا نتوقف في أمره حتى نتبيّن منه .. فهل الاعتقاد فيه توقف ؟!

ويقال لصاحب هذا "الاعتقاد" : ما معنى أن "تعتقد" أن فلان "كافر" ؟! .. هل يعني أن "تعتقد" أن اسمه "كافر" ؟! .. أم "تعتقد" أنه يستحق معاملة "الكافر" ؟! .. أم "تعتقد" أن

أعماله الصالحة السابقة واللاحقة حابطة ، ولم تعد مقبولة عند الله (تعالى) ، وأن مصيره إلى النار خالداً فيها إن مات "كافراً" ؟! .. وكل هذه الأمور بحثناها في ثنايا هذا الكتاب ، فراجعها ..

○ شبهة تلازم الظاهر والباطن

وهذه شبهة يسوّغون بها الحكم على بواطن الناس والاعتقاد فيهم بما ظهر من أعمالهم .
أما مسألة "تلازم الظاهر والباطن" ، فليس ذلك في باب "الأحكام" التي لا شأن لها بالباطن ؛ لكنها في باب "الحقائق" التي يُحاسب الله (سبحانه وتعالى) عباده عليها .. فكما أنك لا تستطيع أن تجزم أن الأعمال الصالحة لفلان من الناس مقبولة عند الله (تعالى) ؛ مع أن الأعمال الصالحة تستلزم في الباطن التقوى وصلاح القلب والقرب من الله (تعالى) ؛ فإنك لا تستطيع أن تجزم أن أعماله السيئة ليس مغفوراً لها ، أو أنه غير معذور فيها ؛ مع أنها تستلزم باطناً غضب الله (تعالى) ، ونقصان الإيمان ، واستيجاب العقوبة .

فأهل السنة والجماعة لما يحكمون بفسق أو كفر أحد من الناس ، فإنهم لا يتناولون باطنه بهذا الحكم .. بل يكلون الأمر كله لله (تعالى) يحكم فيه ؛ وما عليهم سوى معاملته بالحكم الذي يتناسب مع ظاهره ..

○ عودة إلى نقض استدلالاتهم

وعموماً ، فلنأت على أدلتهم سريعاً ونكشف فساد مسالك استدلالاتهم ، بعون الله (تعالى) .

وحسبنا أن نبيّن أن "الفطرة" تعني الدين كله ، بكافة أحكامه ، بحسب ما قررناه من معنى أصل الدين ؛ فينتقض بذلك أمر بدعتهم في هذا الباب ..

••• آية الميثاق •••

فأما قولهم الأول ، فيستدلون به بقول الله (تعالى) : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (*) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}

قالوا : هذا هو "أصل الدين" ..

الجواب : هذا فهمكم المجرد ، ولم تنص الآية أن هذا هو "أصل الدين" .

وظاهر الآية البسيط يُفيد أن الله (تعالى) أخذ ميثاقاً على بني آدم في طور الذر ، **قبل أن يخلق لهم أجساداً وعقولاً ومدارك حسّية** ؛ فهي إذن معرفة قلبية بحتة – أي : مجرد مشاعر ووجدانات باطنة ، تميل بها القلوب إلى الحق ، وتنفر عن الباطل . والدليل على ذلك معلوم بداهة ؛ فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه يتذكر ذلك الموقف أمام رب العالمين حين أخذ عليه الميثاق !

لكن ، لو افترضنا صحة كلامهم ؛ أن هذا هو "أصل الدين" ؛ فإنا نقول لهم : هل الإيمان بدين الله (تعالى) ، وبكتابه ، وبرسوله داخل في هذا الميثاق أم لا ؟! .. أليس كل ذلك داخلاً في معنى الإيمان بالله رباً ؛ وما يقتضيه ذلك بالضرورة وجوب طاعته والانقياد لأمره ؟

وأيضاً ، فلا نرى ذكراً صريحاً للتكفير في هذه الآية ؛ فكيف جعلتموه من أصل الدين وهو غير مذكور فيها ؟!

ثم بجمع الأدلة بعضها ببعض ، يتبيّن لنا أن هذا الميثاق هو نفسه كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ؛ التي تعني أيضاً : "لا عبادة إلا لله" .. والتي تعني أيضاً : "لا طاعة إلا لله" ..

فإن ثبت أن الدين كله هو "لا إله إلا الله" ، وأن الله (تعالى) قد أخذ الميثاق على الناس جميعاً أن يؤمنوا به ويتبعوا شرعه بحسب ما بلغهم من الحق ؛ فإن استدلالهم بهذه الآية لا يصح على ما ذهبوا إليه .

||| ••• العروة الوثقى ••• |||

قالوا : وأصل الدين هو الذي جاء وصفه في القرآن بـ "العروة الوثقى" . قال الله (تعالى) : {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا} .

الجواب : "العروة الوثقى" هي الدين كله أيضاً ..

- قال الله (تعالى) : {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ}

- وقال الله (تعالى) : {بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ..

جمع هاتين الآيتين ببعض يُبيّن أن "الاستمساك بالعروة الوثقى" يعني : حصول الأجر وانعدام الخوف والحزن ..

ثم ننظر في آية أخرى تفيد هذا المعنى ، وهي :

- قال الله (تعالى) : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}

يتبين هنا أن الاستمساك بالعروة الوثقى يكون بـ : "الإيمان ، والعمل الصالح ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة" ؛ فإن تحقيق هذه الأمور كلها يؤدي إلى حصول الأجر وانعدام الخوف والحزن ؛ وهو عاقبة الاستمساك بالعروة الوثقى ، كما تبيّن في الآيات السابقة .

والآن ، اجمع هذه الآيات كلها بعضها ببعض ، يتبيّن لك أن "العروة الوثقى" تعني إسلام الوجه لله بإحسان ؛ وهو ما يقتضي أن يكون الإنسان يوم القيامة لا خوف عليه ولا هو يحزن ! .. وصاحب المعاصي والمخالفات يناله من الخوف والحزن يوم القيامة بقدر عصيانه .. فهذا دليل صريح أن "العروة الوثقى" هي الدين كله .. هي الطاعة كلها ، والكف عن المعاصي كلها ..

- قال الله (تعالى) : {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}

- وقال الله (تعالى) : {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (*) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}

- وقال الله (تعالى) : {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (*) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ}

والآية الأخيرة دليل صريح أن "العبادة" هي : طاعة الله والرسول .. وأن "الشرك" هو طاعة غير الله (تعالى) ..

هذا هو معنى "العروة الوثقى" ..

أما قولهم في آية : {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا} .. فإنه ، وبجمع هذه الآية مع سائر الآيات ، يتبين أن "الكفر بالطاغوت" يعني : ترك معصية الله (تعالى) .. وأن "الإيمان بالله" يعني : العمل بطاعة الله (تعالى) .. وهذا هو حقيقة دعوة الرسل .. **فإن الرسل جميعها جاءت بأصل واحد ، وهو : طاعة الله (تعالى) واتباع أمره ، والكف عن معصيته ومخالفة أمره .**

ولفظ "الإيمان بالله" لما يُطلق دون اقتران بلفظ "العمل الصالح" ، فإنه يُعنى به مطلق الأعمال الصالحة ، الظاهرة والباطنة ؛ لأجل ذلك اتفق أهل السنة والجماعة على أن العمل الصالح هو من الإيمان .. وقد وردت في ذلك أدلة من القرآن والسنة الصحيحة ..

من ذلك ..

- قول الله (تعالى) : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} . لم يستعمل الله (تعالى) لفظ "العمل الصالح" ههنا ؛ وذلك دليل على أن العمل الصالح داخل في مسمى الإيمان ..

- وقول الله (تعالى) : {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} ..

- وقول الله (تعالى) : {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}

أما في السنة النبوية ..

- جاء في الحديث الصحيح : «أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس» .

- وفي الحديث الآخر : «الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شُعْبة ، فأفضلُها قولُ : "لا إله إلا الله" ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شُعْبة من الإيمان»

فإن كان العمل الصالح (أي : الطاعة) داخلاً في مسمى "الإيمان بالله" ؛ فإنه من البديهة أن المعاصي (أي : طاعة الشيطان) داخلة في مسمى "الإيمان بالطاغوت" ؛ وأن الكفر بالطاغوت يعني : الكف عن معصية الله (تعالى) ..

ولك الآن أن تفهم معنى "الإيمان بالله" و"الكفر بالطاغوت" بعدة آيات ؛ مثل :

- قول الله (تعالى) : {فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (*) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (*) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (*) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (*) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}

- وقول الله (تعالى) : {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (*) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}

| ••• ما لا عذر فيه بالجهل ••• |

قالوا : "أصل الدين" هو ما لا عُذر فيه بالجهل !

قلنا : إن نفيتم العذر بالجهل ، فلا بد أن تُثبتوا حُجة العلم ! .. فكيف ثبت العلم عند هذا الذي لم يُعذر بالجهل ؟!

إن قلتم : بالفطرة .. رجعنا إلى مسألة "حجية الفطرة" ؛ ويلزمكم أنه لا عذر بالجهل أيضاً فيما أثبتته الفطرة من علوم أخرى ..

وإن قلتم بالنص ؛ فقد انتقض مذهبكم ..

ثم يقال لهم : لا عذر بالجهل عندكم في أي باب ؟! .. في استحقاق عذاب النار يوم القيامة ؟ .. أم في استحقاق الأحكام الدنيوية للمحكوم بكفره ؟!

إن قلتم بالأولى : فقد حكمتم بالغيب وتألّيتم على الله (تعالى) ، وليس هذا من شأنكم .. فإن الله (تعالى) هو من يعلم المؤمن حقاً ، والكافر حقاً .. والظاهر قد يختلف !

وإن قلتم بالثانية : فقد عدنا إلى "النص الشرعي" والاحتجاج به .

○ نهاية هذا الباب ..

وفي آخر هذا الباب ، أورد كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في بيان منهج هؤلاء المبتدعة في تقرير مسائل الإيمان :

قال ابن تيمية في [درء التعارض : ١/٢٤٢ – ٢٤٤]:
[-- وأما الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع : فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها ، إلا أن يُبين أنه يوافق الشرع . والألفاظ التي تُعارَض بها النصوص هي من هذا الضرب ؛ كلفظ : الجسم ، والحيز ، والجهة ، والجوهر ، والعرض . فمن كانت معارضته بمثل هذه الألفاظ : لم يجز له أن يكفّر مخالفه ، إن لم يكن قوله مما يبيّن الشرع أنه كفر ؛ لأن الكفر حكم شرعي متلقى عن صاحب الشريعة ؛ والعقل قد يُعلم به صواب القول وخطؤه ، وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفراً في الشرع ؛ كما أنه ليس كل ما كان صواباً في العقل تجب في الشرع معرفته .

ومن العجب قول من يقول من أهل الكلام : إن أصول الدين التي يكفر مخالفها هي "علم الكلام" الذي يُعرف بمجرد العقل ؛ وأما ما لا يعرف بمجرد العقل فهي الشرعيات عندهم ؛ وهذه طريقة المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم ، كأتباع صاحب الإرشاد وأمثالهم .

فيقال لهم : هذا الكلام تضمن شيئين ؛ أحدهما : أن أصول الدين هي التي تعرف بالعقل المحض دون الشرع ؛ والثاني : أن المخالف لها كافر . وكل من المقدمتين – وإن كانت باطلة – فالجمع بينهما متناقض . وذلك أن ما لا يعرف إلا بالعقل لا يعلم أن مخالفه كافر الكفر الشرعي ، فإنه ليس في الشرع أن من خالف ما لا يعلم إلا بالعقل يكفر ، وإنما الكفر يكون بتكذيب الرسول (صلى الله عليهم وسلم) فيما أخبر به ، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه ؛ مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم .

وفي الجملة ؛ فالكفر متعلق بما جاء به الرسول ، وهذا ظاهر على قول من لا يوجب شيئاً ولا يحرمه إلا بالشرع ؛ فإنه لو قدر عدم الرسالة لم يكن كفرٌ محرم ، ولا إيمان واجبٌ عندهم . ومن أثبت ذلك بالعقل : فإنه لا ينازع أنه بعد مجيء الرسول تعلق الكفر والإيمان بما جاء به ؛ لا بمجرد ما يعلم بالعقل ؛ فكيف يجوز أن يكون الكفر معلقاً بأمور لا تعلم إلا بالعقل ؟ إلا أن يدل الشرع على أن تلك الأمور التي لا تعلم إلا بالعقل كفر ، فيكون حكم الشرع مقبولاً .

لكن معلوم أن هذا لا يوجد في الشرع ؛ بل الموجود في الشرع تعليق الكفر بما يتعلق به الإيمان ، وكلاهما متعلق بالكتاب والرسالة ؛ فلا إيمان مع تكذيب الرسول ومعاداته ، ولا كفر مع تصديقه وطاعته .

ومن تدبر هذا : رأى أهل البدع من النفاة يعتمدون على مثل هذا ؛ فيبتدعون بدعاً بآرائهم ، ليس فيها كتاب ولا سنة ، ثم يكفرون من خالفهم فيما ابتدعوه ؛ وهذا حال من كفر الناس بما أثبتوه من الأسماء والصفات – التي يسميهما هو : تركيباً وتجسيماً ، وإثباتاً لحلول الصفات والأعراض به ؛ ونحو ذلك من الأقوال التي ابتدعتها الجهمية والمعتزلة ، ثم كفروا من خالفهم فيها .

والخوارج الذين تأولوا آيات من القرآن وكفروا من خالفهم فيها أحسن حالاً من هؤلاء ؛ فإن أولئك علقوا الكفر بالكتاب والسنة ، لكن غلطوا في فهم النصوص ؛ وهؤلاء علقوا الكفر بكلام ما أنزل الله به من سلطان .

ولهذا كان ذم السلف للجهمية من أعظم الذم ؛ حتى قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية .

بل الحق أنه لو قدر أن بعض الناس غلط في معان دقيقة لا تعلم إلا بنظر العقل ، وليس فيها بيان في النصوص والإجماع ، لم يجز لأحد أن يكفر مثل هذا ، ولا يفسقه ؛ بخلاف من نفى ما أثبتته النصوص الظاهرة المتواترة ؛ فهذا أحق بالتكفير ، إن كان المخطئ في هذا الباب كافراً .

وليس المقصود هنا بيان مسائل التكفير ، فإن هذا مبسوط في موضع آخر ؛ ولكن المقصود أن عمدة المعارضين للنصوص النبوية أقوال فيها اشتباه وإجمال ، فإذا وقع الاستفسار والاستفصال تبين الهدى من الضلال .

فإن الأدلة السمعية معلقة بالألفاظ الدالة على المعاني ، وأما دلالة مجرد العقل فلا اعتبار فيها بالألفاظ .

وكل قول لم يرد لفظه ولا معناه في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة فإنه لا يدخل في الأدلة السمعية ، ولا تعلق للسنة والبدعة بموافقته ومخالفته ، فضلاً عن أن يعلق بذلك كفر وإيمان ؛ وإنما السنة : موافقة الأدلة الشرعية ، والبدعة : مخالفتها .

وقد يقال عما لم يعلم أنه موافق لها أو مخالف : أنه بدعة ؛ إذ الأصل أنه ما لم يُعلم أنه من الشرع فلا يتخذ شريعة وديناً ؛ فمن عمل عملاً لم يعلم أنه مشروع فقد تذرع إلى البدعة ؛ وإن

كان ذلك العمل تبين له فيما بعد أنه مشروع ؛ وكذلك من قال في الدين قولاً بلا دليل شرعي : فإنه تذرع إلى البدعة ، وإن تبين له فيما بعد موافقته للسنة .

والمقصود هنا أن الأقوال التي ليس لها أصل في الكتاب والسنة والإجماع ؛ كأقوال النفاة التي تقولها الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، قد يدخل فيها ما هو حق وباطل . --]

■ الباب الرابع : كيف يدخل المرء في الإسلام

دخول المرء في الإسلام هو باعتبارين ؛ الأول : ما بينه وبين الله (تعالى) ؛ والثاني : ما بينه وبين الناس .

فأما ما بينه وبين الله (سبحانه وتعالى) ؛ فإنه لا يكون عند الله مسلماً حقاً حتى يؤمن بقلبه إيماناً صحيحاً بالإسلام ؛ بحسب مراد الله (عز وجل) . فهو بذلك حُكم باطن ، لا سبيل لمعرفته إلا بالوحي .

وتصديق ذلك معلوم بداهة عند أقل الناس علماً بدين الله (تعالى) . فإن من الناس من هو كافر ظاهراً ومؤمن باطناً ؛ كالنجاشي ومؤمن آل فرعون ؛ وكذلك كل مؤمن يكتم إيمانه بين قوم كافرين ، ويُظهر لهم خلاف ما يُبطن تقيّة منهم وخوفاً على نفسه . ومن الناس من هو مؤمن ظاهراً وكافر باطناً ، وأولئك هم المنافقون . **فالفصل بينهما لا يُدرك إلا بالوحي** ؛ إلا من أظهر منهم علامة تدلّ على حقيقته الباطنة ، يُحكم بها عليه بحسب ما تقتضيه النصوص الشرعية .

وأما ما بينه وبين الناس ؛ فإنه يُكتفى ممن يُريد أن يحكم له الناس بالإسلام أن يُظهر قبوله للإسلام ديناً له ، بأي لفظة تدل على ذلك ، وكانت في عُرف المسلمين أنها تعني الإسلام ؛ وأشهر هذه الألفاظ وأحكمها هو : النطق بالشهادتين . ولا يجوز التوقف في الحكم بإسلامه بدعوى النظر في حاله بعد الإسلام لمعرفة مدى صدقه من كذبه ! .. بل يُحكم له فور نطقه به .

➢ مسائل في الباب

هذه عدة مسائل ضرورية في هذا الباب ينبغي التطرق إليها وبحثها بشيء من التفصيل والدليل .

| ●●● الأولى : أدلة الحكم على الناس بالإسلام ●●● |

ينبغي بالضرورة أن نعلم أن حكمنا على إنسان ما بالإسلام هو حُكم بظاهر الحال ، ولا شأن لنا بحقيقته الباطنة ، التي لا يحاسب عليها إلا الله (تعالى) .

وأيضاً : حُكمنا على إنسان ما بالإسلام يعني : معاملة الشخص الذي أقر بالإسلام ديناً له مُعاملة المسلم ؛ بحسب ما نص عليه الشرع من جهة الحقوق الدينية والدنيوية .

فالمسلم له حق الولاء ؛ بأن نحبه على ما أظهر من الإسلام والطاعة ، وننصره على عدوه ، ونرث منه ويرث منا ، ونصلي خلفه ويصلي خلفنا ، ونصلي عليه عند موته ويصلي علينا ، ويتكافأ دمه مع دم بقية المسلمين ؛ وغير ذلك من الحقوق التي ينالها ، بضوابط الشرع .

كل هذا ، ولا شأن لنا بحكمه الباطن عند الله (تعالى) .. فقد يكون منافقاً كافراً على الحقيقة ، لكننا نعامله معاملة المسلم لما أظهر لنا من الإسلام .

قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ ، وَلا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ» .

وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم . فمن أظهر لنا خيراً : أمّناه وقربناه ، وليس لنا من سريرته شيء ، الله يحاسبه في سريرته . ومن أظهر لنا سوءاً : لم نأمنه ، ولم نصدقه ، وإن قال إن سريرته حسنة)

هذا أصل معتمد في الحكم على الناس . وحتى لا أطيل الكلام ، سأستعرض الأدلة التي تفيد الحكم على إنسان ما بالإسلام .

وأدلة ذلك كثيرة ، نكتفي منها بما يلي :

- **الدليل الأول** : قال الله (تعالى) : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}

الشاهد فيه : يكفي للحكم عليهم بالإسلام أن يقولوا "أسلمنا" .. ويدل على ذلك الحديث التالي :

روى البخاري أنه : بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : "أسلمنا" ، فجعلوا يقولون : "صبأنا صبأنا" . فجعل خالد يقتل منهم ويأسر .. الحديث .

موطن الشاهد هو قوله : "فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا" .. أي : لو قالوها ، لحكم عليهم بالإسلام .

....

- **الدليل الثاني** : قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ فإذا قالوها : فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله»

الشاهد فيه : المرء يدخل الإسلام إن نطق بالشهادتين .

....

- **الدليل الثالث** : عن المقداد بن الأسود أنه قال : يا رسول الله ، أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفار ، فقاتلني ، فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها ، ثم لاذ مني بشجرةٍ ، فقال : أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «لا تقتله» . قال : فقلت : يا رسول الله ، إنه قد قطع يدي ، ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «لا تقتله ، فإن قتلته : فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»

الشاهد فيه : نحكم على الكافر بالإسلام إن قال "أسلمت لله" ؛ وإن قالها خوفاً من القتل فيما يبدو للناظر .

....

- **الدليل الرابع** : عن أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الحُرَقة من جهينة ، فصبحنا القوم ، فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلًا منهم ، فلما غشيناه قال : "لا إله إلا الله" ؛ فكف عنه الأنصاري ، وطعنته برمحي حتى قتلته . قال : فلما قدمنا : بلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ فقال لي : «يا أسامة ، أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله؟!» قال : قلت : يا رسول الله ، إنما كان

متعوذًا . قال : فقال : «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟!» [وفي زيادة من رواية صحيحة عند مسلم : «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا ؟!»] قال : فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .

الشاهد فيه : نحكم على الكافر بالإسلام إن قال "لا إله إلا الله" ؛ وإن قالها خوفاً من القتل فيما يبدو للناظر .

....

- **الدليل الخامس** : وفي البخاري أن ضمام بن ثعلبة جاء النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأله عن الإسلام ، فقال : أسألك بربك ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ ، فقال : «اللهم نعم» . قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ ، قال : «اللهم نعم» . قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟ ، قال : «اللهم نعم» . قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها في فقرائنا ؟ ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «اللهم نعم» . فقال الرجل : آمنت بما جئتَ به ، وأنا رسول من ورائي من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر .

الشاهد فيه : نحكم على الكافر بالإسلام إن قال "آمنت بما جئت به" .

....

- **الدليل السادس** : حديث الجارية : أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بجارية ، فقلت : يا رسول الله ، عليّ رقبة ، أفأعتقها ؟ فقال لها رسول الله : «أين الله؟» فقالت : في السماء . فقال : «من أنا ؟» قالت : رسول الله . قال : «اعتقها ، فإنّها مؤمنة» .

الشاهد فيه : حكم عليها بالإسلام بقولها : "الله في السماء ، وأنت رسول الله" .

....

- **الدليل السابع** : عن عمران بن حصين من حديث له ، وفيه : فقال الرجل : يا محمد ، يا محمد ! فقال : «ما شأنك ؟» قال : إني مسلم . قال : «لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح» .

الشاهد فيه : لو قال الكافر : "أنا مسلم" ، حكمنا عليه بالإسلام .

....

- **الدليل الثامن** : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا : فذلك المسلم ، الذي له ذمة الله وذمة رسوله ؛ فلا تخفروا الله في ذمته»

الشاهد فيه : أن الكافر لو فعل هذه الأمور الثلاثة ، نحكم عليه بالإسلام ، ولو لم نسمعه قد نطق بالشهادتين .

....

- **الدليل التاسع** : قال أنس بن مالك (رضي الله عنه) : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا غزا بنا قوماً : لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر ؛ فإن سمع النداء كف عنهم ، وإن لم يسمع النداء أغار عليهم .

الشاهد فيه : جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) مجرد رفع الناس للأذان حاكماً عليهم بالإسلام ؛ لأجل ذلك يكفّ عنهم ولا يغزوهم .

....

- **الدليل العاشر** : اتفاق المسلمين على أن الفرد من الجماعة أو البلدة المسلمة ، يُحكم عليه بالإسلام ، وإن لم يُسمع منه ما يفيد الإسلام .. كما لو ذهبت إلى أحد الديار المسلمة ، فإنك تعامل كل فرد فيها معاملة المسلم ، ما دام سمته الظاهر أنه مسلم (أي : يلبس لباس المسلمين) ؛ وإن لم تسمعه قد نطق بالإسلام !

- **الدليل الحادي عشر** : أطفال المسلمين ومجانينهم يُحكم عليهم بالإسلام ، مع أنهم لا يعقلون ما الإسلام ، ولا يدركون معناه !

هناك أدلة أخرى بهذا المعنى ، وجميعها تفيد أن حُكمنا على إنسان ما بالإسلام إنما هو بما أظهره من إقراره بالإسلام ديناً له ، أو دخوله في حُكم جماعة المسلمين (كالأطفال والمجانين ومجهول الحال الذي تزيّى بزي المسلمين في بلادهم) .

| ••• الثانية : الوعيد لمن نفى وصف الإسلام عمّن انتسب له ••• |

- **الدليل الأول** : قال الله (تعالى) : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

الشاهد فيه : إن أظهر الكافر لنا شيئاً من شعائر الإسلام المميّزة ، كإلقائه علينا تحية الإسلام ، ينبغي التوقف عن تكفيره حتى نتبيّن حقيقة حاله .

....

- **الدليل الثاني** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «من قال لأخيه يا كافر ، فقد باء بها أحدهما»

- **الدليل الثالث** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «إذا سمى الرجل الآخر كافراً : فقد كفر أحدهما ؛ إن كان الذي قيل له كافر : فقد صدق صاحبه كما قال له ؛ وإن لم يكن كما قال : فقد باء الذي قال بالكفر»

- **الدليل الرابع** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « أيما رجل مسلم أكفر رجلاً مسلماً ؛ فإن كان كافراً : وإلا كان هو الكافر»

- **الدليل الخامس** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «ومن دعا رجلاً بالكفر ، أو قال : "عدو الله" وليس كذلك : إلا حار عليه»

- **الدليل السادس** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «ما أكفر رجل رجلاً إلا باء أحدهما بها ؛ إن كان كافراً : وإلا كفر بتكفيره»

- **الدليل السابع** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «لا يرمي رجلٌ رجلاً بالفسوق ، ولا يرميه بالكفر : إلا ارتدت عليه ، إن لم يكن صاحبه كذلك»

- **الدليل الثامن** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر : فهو كقتله»

- **الدليل التاسع** : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن ، حتى إذا رئيت بهجته عليه ، وكان ردئاً للإسلام : غيرّه إلى ما شاء الله ، فانسلخ منه ، ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك» ؛ قال حذيفة : قلت : يا نبي الله ، أيهما أولى بالشرك ، المرمي أم الرامي ؟ قال : «بل الرامي»

- **الدليل العاشر** : في تقريع النبي (صلى الله عليه وسلم) الشديد لأسامة بن زيد (رضي الله عنه) لقتله ذلك الرجل الذي قال "لا إله إلا الله" ظاناً أنها لا تنفعه وقد قالها تعوّذاً من السيف .

قال ابن دقيق العيد (رحمه الله) في [إحكام الأحكام : ٤/٧٦]:
[-- هذا وعيد عظيم لمن أكفر أحداً من المسلمين وليس كذلك ؛ وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين ، ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث لما اختلفوا في العقائد ، فغلظوا على مخالفيهم ، وحكموا بكفرهم --]

فمسألة الخطأ في تكفير المسلم بغير وجه حق قد بلغ نهي النبي (صلى الله عليه وسلم) حد التواتر ، وقد ورد فيها وعيد غليظ يبلغ الكفر في ظاهر اللفظ .. وفي المقابل : لا يوجد نص واحد صريح يأمر بتكفير المشركين ، وأن من لا يكفرهم فهو كافر ؛ أو أن تكفير المشركين من الإيمان والتوحيد .. وغير ذلك ..

أفنسي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن ينبّه على ذلك ، ولم ينس مسألة تكفير المسلم ؟!

جميع أهل البدع يستدركون على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويُحدثون في دين الله (تعالى) مقالات لم تُعهد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا عن أصحابه ؛ ويجعلونها من أهم واجبات الدين التي تلزم عامة المسلمين ! .. فتأمل ..

▪ الباب الخامس : معنى "التكفير"

"التكفير" هو نقيض "الأسلمة" ؛ ومعناه باختصار : نفي حكم الإسلام عن المحكوم بكفره – (راجع الباب الثالث) .

وحتى تفهم معناه حق الفهم ، ينبغي أن تفهم معنى نقيضه : "الأسلمة" ..

➢ معنى "الأسلمة" وخصائصها

فأما "الأسلمة" ، وهي : الحكم على إنسان ما بالإسلام ؛ فقد تبيّن لك مما سبق أنها :

- **مجموعة من الأحكام الشرعية التي يُعامل بها الفرد المسلم ، وما تتضمنه من حقوق مفروضة له وعليه** . وبمقتضى ذلك ، فإن "المسلم" عند الناس في أحكام الدنيا هو الذي يُعامل معاملة المسلم بحسب ما شرعه الله (تعالى) .

- **وهي مسألة حُكمية ، تؤخذ بظاهر حال المحكوم عليه** دون النظر إلى باطنه الذي لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى) .

- **ولا علاقة لها البتة بتصحيح إيمان الفرد المحكوم بإسلامه** ؛ فإنه قد يكون منافقاً كافراً في باطنه ، لكنا حكمنا عليه بالإسلام لما أظهره من قبول له وتديّن به .

- **وهي حُكم ظني لا يقيني** ؛ وهكذا شأن الأحكام الظاهرة التي لا يُعلم باطنها ؛ وهذا يلزم منه بالضرورة أنها من مسائل الأحكام ، لا من مسائل الاعتقاد .

- **ولها ثلاثة مآخذ كلها راجعة إلى الانتساب إلى الدين** : إما بالتصريح بلفظ يُفهم منه إيمانه بالإسلام واتخاذه له ديناً ؛ كأن ينطق بالشهادتين ، أو يقول أسلمت ، أو آمنت بالقرآن ، أو أنا مسلم ، وغير ذلك مما يفيد قبوله لدين الإسلام والانتساب له .. وإما بالتبعية لقوم أو دار الأصل فيهم الإسلام ؛ وإن لم يُسمع منه بعينه كلاماً يفيد الإسلام ؛ أو التبعية لوالدين مسلمين ؛ ويدخل فيه الأطفال دون سن الحلم ، والمجانين ، والصم البكم .

وإذا أخذنا بنقيض ذلك ، تبيّن لنا بجلاء معنى "التكفير" ..

➢ معنى "التكفير" وخصائصه

فالتكفير ، أي : الحكم على إنسان ما بالكفر ، هو :

- **مجموعة من الأحكام الشرعية التي يُعامل بها الفرد المحكوم بكفره ، وما تتضمنه من حقوق مفروضة له وعليه** ؛ بحسب ما تقتضيه الشريعة . وعليه ، فإن "الكافر" عند الناس في أحكام الدنيا هو الذي يُعامل معاملة الكافر بحسب ما شرعه الله (تعالى) .

- **مسألة حُكمية ، تؤخذ بظاهر حال المحكوم عليه** دون النظر إلى باطنه الذي لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى) .

- **لا علاقة له البتة بنفي أو إبطال الإيمان في قلبه** ؛ فإنه قد يكون مؤمناً على الحقيقة الباطنة ، لكنه يخفي إيمانه ، ويتعامل بالتقية ؛ كحال النجاشي ومؤمن آل فرعون وكثير من مسلمي مكة المستضعفين ؛ يُحكم عليهم بالكفر ظاهراً ، وأمرهم الباطن إلى الله (تعالى) .

- **حُكم ظني لا يقيني** ؛ وهكذا شأن الأحكام الظاهرة التي لا يُعلم باطنها ؛ وهذا يلزم منه بالضرورة أنه من مسائل الأحكام ، لا من مسائل الاعتقاد .

- **ولها ثلاثة مآخذ كلها راجعة إلى الانتساب إلى الدين** : إما بالتصريح بلفظ يُفهم منه إيمانه بغير الإسلام واتخاذ ذلك ديناً ؛ كأن يصرّح بلسانه أنه بريء من الإسلام ، أو أنه على غير دين الإسلام ، أو ينطق أو يفعل ما هو معدود من الكفر بدين الإسلام ، دون أن يكون له عذر شرعي يمنع لحوق حكم هذا الكفر به .. وإما بالتبعية لقوم أو دار الأصل فيهم الكفر ؛ وإن لم يُسمع منه بعينه كلاماً يفيد الكفر ؛ أو التبعية لوالدين كافرين ؛ ويدخل فيه الأطفال دون سن الحلم ، والمجانين ، والصم البكم .

➢ اختلاف الخصائص بين "الأسلمة" و"التكفير"

ما قررناه آنفاً في معنى الأسلمة والتكفير يُبيّن أوجه التطابق بين خصائص كلا الأمرين بالمعنى الذي يتعلق به . لكن وجب التنبيه على وجود الاختلاف بينهما في جوانب أخرى ؛ وهي :

وجود تساهل كبير في الشريعة في الحكم على الناس بالإسلام بمجرد الكلمة ينطقونها أو الفعل يؤدونه ؛ دون الحاجة إلى التشدد في ذلك ، ولا تكلف التحري ولا الاستقصاء ولا النظر

، ولا غير ذلك .. بينما – في مقابل ذلك – يوجد تشديد كبير في تكفير من انتسب إلى الإسلام ولم يتبرأ منه صراحة ! .. ويتجلى ذلك بوفرة الأحاديث التي تزجر وتتوعد الوعيد العظيم على تكفير المسلم ، **دون وجود نص واحد بهذا المستوى من الصراحة على عدم تكفير الكافر !**

ومن تجليات ذلك أيضاً : تساهل النبي (صلى الله عليه وسلم) في حكمه بالإسلام على المنافقين ، وعدم تحريه أسباب تكفيرهم ؛ ما داموا لم ينطقوا بالكفر الصراح ..

والأحاديث التالية تبيّن المقصود من كلامنا ..

- الحديث الأول : بينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس بين ظهراني أصحابه ، إذ جاءه رجل فسارّه ، فلم يدر ما ساره به ، حتى جهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا هو يستأذن في قتل رجل من المنافقين ؛ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين جهر : «أليس يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؟» ؛ فقال الرجل : بلى ، ولا شهادة له . قال : «أليس يصلي ؟» ؛ قال : بلى ، ولا صلاة له . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «أولئك الذين نهاني الله عنهم» .

- وفي حديث ذي الخويصرة الذي قال للنبي (صلى الله عليه وسلم) : "اعدل" أو "اتق الله" ؛ فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه ؟ قال : «لا ، لعله أن يكون يصلي» . فقال خالد : وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ؟! فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم» .

- وحديث الرجل الذي قتله أسامة بن زيد وقد قال "لا إله إلا الله" ، مع أن ظاهره أنه قالها مُكرهاً وفزعاً من السيف .. وقول شهادة التوحيد لغرض دنيوي ، كحفظ النفس ، لا يصح بها الإيمان عند الله (تعالى) .. لكن يصح بها الحكم الظاهر بالإسلام .

- وحديث إعطاء النبي (صلى الله عليه وسلم) للناس لأجل دخولهم الإسلام ؛ وكانوا يدخلون فيه طلباً للدنيا والعطاء .. ومثل هذه النية عند الله (تعالى) لا تصلح لتحقيق الإيمان ، لكن حكم النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم بالإسلام بمجرد إقرارهم بذلك .

- وصلاة النبي (صلى الله عليه وسلم) على رأس النفاق ، ومعاملته له معاملة المسلمين ودفنه في مقابرهم ، وقد أعلمه الله (تعالى) من قبل بنفاقه وكفره الباطن ؛ يدلّ على التساهل الذي جاءت به الشريعة في الحكم على الناس بالإسلام ما داموا أقرّوا به ولم يتبرأوا عنه صراحة .

- وفي حديث أنس : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لرجل : «أسلم» ؛ قال : أجدني كارهاً ؛ قال : «أسلم ، وإن كنت كارهاً» . قال ابن رجب الحنبلي تعليقاً على هذا الحديث في [فتح الباري : ٢٨/١] :
[-- وهذا يدل على صحة الإسلام مع نفور القلب عنه وكراهته له ؛ لكن إذا دخل في الإسلام واعتاده وألفه : دخل حبه قلبه ، ووجد حلاوته .--]

- وقد صحح جمع من العلماء إسلام "الهازل" في أحكام الدنيا ، وجعلوه بمنزلة من أسلم خائفاً ، أو طامعاً ، أو كارهاً .. كما قال ابن القيم الجوزية (رحمه الله) في [إعلام الموقعين : ٣١٩/٣] :
[-- فلو تكلم الكافر بكلمة الإسلام هازلاً : أُلزم به ، وجرت عليه أحكامه ظاهراً --]

فهذا كله وغيره مما يُبين المنهج العام في التعامل مع من أظهر الإسلام وانتسب إليه وارتضاه لنفسه ديناً في الظاهر .. هناك تساهل وتوسيع ملحوظ على الناس في ذلك .. **فلو كان "التكفير" من مسائل الاعتقاد ، فلا يصح مثل هذا التساهل** .

➢ إشكالات وتخبطات الغلاة في معنى "التكفير"

لو أنك سألت أكبر رؤوس الغلاة عن معنى "التكفير" بالأدلة الشرعية : لأسقط في يده ، ولانكشف جهله ، وبانت عورة بدعته ! .. فهم يقولون بألفاظ لا يدركون معناها الصحيح في الشريعة ؛ وعند التحقيق العلمي الصحيح ، وردّها إلى مواردها من الأدلة الشرعية : يتبيّن فساد قولهم وخطأ رأيهم .

فأول أخطائهم وأعظمها : أن النصوص الشرعية الصحيحة لا تكاد تجد فيها هذه اللفظة أصلاً ؛ وليست هي من الألفاظ الدارجة المشهورة ، وإن وجدتها : فستجدها في بعض الزوائد الحديثية الغريبة الواردة على سبيل المتابعة . وحتى لو سلّمنا بوجود هذه اللفظة ، فهي لم تُستعمل كـ "مصطلح شرعي" تنبني عليه أحكام شرعية ، بل استعملت كلفظة عارضة لا غير ، كتلك التي تجري في عامة كلام الناس .

لذلك ، فمما يقال لهم :

- **لماذا لم يستعمل الله (سبحانه وتعالى) ، ولا رسوله (صلى الله عليه وسلم) لفظة "التكفير" في دعوة الناس ، وتفهيمهم الدين ، وتبيين الحق لهم ؟!**

- **ولماذا لا تجد في مقابل الأحاديث الكثيرة المتواترة في شأن تكفير المسلم ، أحاديث أخرى على غرارها في شأن أسلمة الكافر** ؛ كأن يُقال : من قال للكافر يا مسلم ، فقد باء بها أحدهما ! .. أو : من لم يكفّر مشركاً : فإنه هو المشرك .. وما سوى ذلك من النصوص الصريحة الواضحة ؟

لماذا يذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) مسألة "تكفير المسلم" ، ويترك أختها "أسلمة الكافر" التي هي عندهم أهم وأولى منها بالبيان والتحذير والوعظ ؟!

على أي حال ؛ لنستعرض أقوال وشبهات القوم حول هذا المعنى ..

- **القول الأول** : التكفير معناه : نفي حقيقة الإسلام عن المحكوم بكفره .

الجواب من وجوه :

أحدها : كيف يكون هذا "النفي" ؟! .. هل يكون بأن تسميه "كافراً" أو "غير مسلم" ؟ .. أم أن تعتقد بذلك ؟ .. أم أن تعامله بمقتضى ذلك ؟

فإن قال : معناه أن أسميه كافراً ..

فقل : هل يعني ذلك أن "التكفير" عندك هو مجرد لقب فارغ ، أو اسم أجوف تطلقه ، دون أن يدلّ على معنى أو محتوى ؟ .. أم أنه في الأصل معنى تؤمن به ، ولكنك تُدلّ عليه وتصفه بهذا الاسم لتُبيّن المعنى الذي وراءه ؟!

أما اسم "كافر" ؛ فهو غير لازم حصراً للدلالة على المعنى الذي وراءه .. والدليل في الكتاب والسنة كثير ..

- قال الله (تعالى) : {وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ} .. فهنا ، استعمل الله (سبحانه وتعالى) وصف "الفاسقون" للدلالة على معنى الكفر .

- وقال الله (تعالى) حكاية عن إبراهيم (عليه السلام) قوله : {وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ} .. وهنا استعمال لوصف "الضالين" للدلالة على معنى الكفر .

- وقال الله (تعالى) : {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} .. وهنا استعمال وصف "الظالمين" للدلالة على معنى الكفر .

- وقال الله (تعالى) : {فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .. وهذا الوصف مثل الآية السابقة .

- وقال الله (تعالى) : {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} .. وهنا استعمال وصف "المجرمين" في الدلالة على معنى الكفر .

وغير ذلك كثير جداً من الآيات التي تستعمل أوصافاً أخرى غير "كافر" للدلالة على معنى الكفر ؛ ومنها : المبطلون ، المكذبون ، الفجّار ، الكاذبون ، القاسطون ، الجاهلون .. **وفي**

ذلك دليل حاسم على أن استعمال لفظة "كافر" حصراً للدلالة على ذلك المعنى هو غير لازم ولا واجب .

وفي ذلك أيضاً حجة لنا قاطعة أن أي لفظة تدل على أن صاحبها على الباطل وغير الحق : فهي نافعة للدلالة على معنى "الكفر" .. **فالكفر في معناه العام المطلق هو : كل ما خالف الإيمان** ؛ والإيمان هو كل عمل صالح يُرضي الله (تعالى) .

وإن قال : بل هو اسم دال على معنى ، والمعنى هو المطلوب بدلالة هذا الاسم ..

هنا سيقعون في خبط شديد واضطراب عظيم ، ولا يدرون ما يقولون ..

فيقال له ابتداءً .. فما هذا "المعنى" الذي تقصد ؟! .. فنحن لم نقف بعد على "معنى" التكفير الذي تقول به ! ..

ثم أي "حقيقة" تلك التي تنفيها عن المحكوم بكفره لما قلت أنك تنفي عنه حقيقة الإسلام ؟ .. هل هي الحقيقة الظاهرة ، أم الحقيقة الباطنة ؟!

لا بد أن يعترف أنها الحقيقة الظاهرة ؛ لما تقرر آنفاً من معنى التكفير وأنه بدلالة الظاهر ..

فإن كان حكمك عليه بالكفر هو بالظاهر ، دون الباطن .. فلا مجال "للاعتقاد" في هذا الإنسان المحكوم بكفره ؛ فهذا أمر غيبي لا يعلمه إلا الله (تعالى) .. أما "التكفير" فهو حُكم بدلالة الظاهر ..

ونرجع لمسألة "التسمية" هنا ..

إن كان يُمكن "تكفير" الإنسان بغير تسميته بـ "كافر" .. مثلاً بلفظة "مجرم" أو "فاسق" أو "ظالم" ..

وإن كان "التكفير" مسألة حُكمية ظاهرية ، لا مسألة باطنية اعتقادية ..

فكيف يكون "التكفير" إذن بحسب مذهب الغلاة ؟!

لاحظ .. لا استعمال لفظة "كافر" لازمة لأجل التكفير .. ولا ينبغي "الاعتقاد" بكفر هذا الإنسان في باطنه ..

يبقى باب "المعاملة" هو النافذ ..

فـ "التكفير" إذن هو مُعاملة المحكوم بكفره بما يُعامَل به مثله من الكفار ..

فيقال : وهل أحكام معاملة الكفار من "أصل الدين" ؟ أو هو معلوم بالفطرة ؟ أم ماذا ؟! .. وهنا ينتقض مذهبهم من أساسه .

- **القول الثاني** : التكفير معناه : البراءة من المحكوم بكفره .

نسألهم : وما معنى "البراءة" هذه ، وكيف تكون ؟

هل يجب أن تقول له أنك بريء منه ؟! .. أم تعتقد البراءة منه ؟! .. أم تتبرأ منه بمعاملتك ؟

أما أن تقول له في وجهه أنك بريء منه ؛ فهذا غير واجب على الإطلاق .. بل هو في مواضع دون مواضع .. وجميعها لا علاقة لها بـ "أصل الدين" الذي يقولون به . فإنك يمكن أن تتبرأ من الكافر وأنت ساكت ولا تكلمه أصلاً ..

أما "الاعتقاد" ، فقد علمنا أننا لا نعتقد في الأحكام الظاهرة .. ولكن نتعامل معها وفق ما تقتضيه هذه الأحكام في دين الله (تعالى) ، ونفوّض أمر الباطن إلى الله (تعالى) ..

بقي لنا باب "المعاملة" .. كيف تتبرأ منه بمعاملتك ؟! ..

ذلك يكون بأن تبغضه على كفره ، وتنكره بقلبك وبيدك ولسانك ، وأن لا تعينه عليه ، وأن تهجر المكان الذي يحصل فيه هذا الكفر .. وهكذا ، على تفصيل ليس هذا موضعه .

وهذه الأحكام في البراءة هي نفسها التي تقال في الفاسق ؛ على أن الفاسق له من حقوق المسلم ما ليس للكافر ؛ على تفصيل ليس هذا موضعه أيضاً ..

- **القول الثالث** : التكفير معناه : نفي التوحيد عن المحكوم بكفره .

الجواب : هذا مثل القول الأول مع اختلاف العبارة ! .. كيف يكون هذا النفي ؟ وهل هذا النفي متعلق بالظاهر أم بالباطن ؟ .. وهل هذا حكم ظاهري أم أمر اعتقادي ؟

➢ من لا يعرف "الأسلمة" لا يعرف "التكفير"

هذه حقيقة غفل عنها الغلاة ؛ وهي أن هناك رابطاً وثيقاً لا ينفك بين "الأسلمة" و"التكفير" ؛ وهو نفسه الرابط بين أي شيء ونقيضه .. فمن تخبط في الأولى ، فلا بد أن يتخبط في الثانية ..

ولو ذهبت تفصّل كلا الأمرين بأسلوب يُبّين اندماجهما ببعض ، فإننا نفسّر "الأسلمة" بأنها : "المنع من التكفير" ؛ ونفسر "التكفير" بأنه : "المنع من الأسلمة" ؛ وبينهما نقطة توقّف ، لا هي أسلمة ولا هي تكفير ..

فالذي تحكم بإسلامه : لا بد أنك تمتنع من تكفيره حتماً .. كما أن الذي تحكم بتكفيره : لا بد أنك تمتنع من أسلمته حتماً ..

وبهذا البيان نستطيع أن ننقض جميع شبهاتهم التي وضعوها على معنى "التكفير" ..

فإن قالوا : "التكفير من أصل الدين" .. فإن هذا يلزم منه قطعاً أن "الأسلمة" أيضاً من أصل الدين ..

كيف ؟ .. الجواب بسيط ..

أليسوا يقولون أن "أسلمة" الكافر ناقضة لأصل الدين ؟! .. وهذا يقتضي بالضرورة أنه من لا يعرف كيف يؤسلم الناس ، فهو كافر ! .. فإنه يجب أن لا يؤسلم الكافر ، بل يؤسلم المسلم فقط !

ويقولون : من حكم بإسلام الكافر ، فقد ساوى بين التوحيد والشرك ؛ إذ أنه حكم على كفر الكافر بأنه إسلام !!!

فنقول : ومن حكم بكفر المسلم ؛ فقد ساوى بين التوحيد والشرك أيضاً ؛ إذ أنه حكم على توحيد المسلم بأنه شرك !!

ويقولون : من حكم بإسلام جاهل التوحيد ؛ فقد جعل الجهل بالله إيماناً ..

فنقول : ومن حكم بكفر عالم التوحيد ؛ فقد جعل العلم بالله كفراً ..

وإن قالوا أن "التكفير" هو براءة من "الكفر" .. فنقول أن "الأسلمة" هي ولاء للإسلام !

فكما ترى ، هناك ترابط وثيق بين الأمرين .. لا يأتونك بالشبهة إلا وتجد نظيرتها في باب "الأسلمة" ..

وهذا كله يبين لك أنه لو كان "التكفير" من أصل الدين من جهة الكفر بالطاغوت ؛ فإن "الأسلمة" هي من أصل الدين أيضاً من جهة الإيمان بالله ..

وماذا لو علمت أنه قد وُرد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أحاديث كثيرة تُفيد في ظاهرها أن تكفير المسلم كفر ؛ بينما لا يوجد نص واحد بهذه الصراحة في أن أسلمة الكافر كفر ؟!

▪ الباب السادس : معنى "الطاغوت" والكفر به

قد علمنا مما سبق أن "الكفر بالطاغوت" يعني : الكفّ عن معاصي الله (تعالى) ؛ وهذا يقتضي أن "الطاغوت" هو : كل من يأمر بمعصية الله (تعالى) ، ويصرف عن طاعته .

وينبغي أن يُعلم أن مجرد لفظ "الطاغوت" لا يُبنى عليه حكم شرعي ؛ بل الأحكام الشرعية تُبنى على معناه الذي ذكرناه ..

لأجل ذلك ، **لا تجد بياناً في القرآن الكريم يتناول معنى هذه اللفظة على التحديد** ؛ ولا تجد بياناً خاصاً من النبي (صلى الله عليه وسلم) في شرح هذه اللفظة ؛ كأن يقول : الطاغوت هو كذا وكذا ؛ ومن لم يعرف الطاغوت فهو كافر ، وما إلى ذلك مما يقوله الغلاة ..

و"الطاغوت" هو أحد الأسماء الوصفية التي يُبيّن الله (سبحانه وتعالى) بها للناس حقيقة دينهم ؛ **ومتعلقة بمعنى واحد ذي أوصاف متعددة** ؛ لأجل ذلك نوّع الله (تعالى) في وصفه بألفاظ مغايرة ، إذ أن تعدد أوصاف الشيء يفيد مزيداً من العلم به .

وهذا كما أن في اللغة أسماءً عدة لمسمى واحد ، كل اسم منها يتعلق بوصف خاص بهذا المسمى مما عرفه الناس به ؛ فالأسد يُسمى غضنفراً ، وعباساً ، وضرغاماً ، وغير ذلك .. والسيف يُسمى حساماً ، وفيصلاً ، ومهنداً ، وحاتماً .. وغير ذلك .. كلها أسماء مغايرة لمسمى واحد ، يدل كل واحد منها على وصف خاص يُعرف به هذا المسمى ..

والأسماء الوصفية الأخرى لمعنى "الطاغوت" والواردة في القرآن الكريم هي : الشيطان ، والأولياء ، والأنداد ، والشركاء ، والشفعاء ، والآلهة ، والأصنام ، والأوثان ، والهوى ، والدنيا ؛ وغير ذلك

مما يمكن أن تجده في كتاب الله (تعالى) من أسماء لنفس المسمى ؛ **والذي هو في الحقيقة : الشيطان** .

لكنك ترى أن الغلاة يتشبثون باسم "الطاغوت" ويتركون بقية الأسماء !!

○ معنى "الطاغوت" في الشرع

اسم "الطاغوت" يُطلق في النص الشرعي ويُراد منه ابتداءً "الشيطان" ، إذ أنه مصدر "الطغيان" كله (أي : المعصية) ، أو من يقوم مقامه من أوليائه ، الداعين إلى معصية الله (تعالى) ..

فإطلاق لفظ "الشيطان" إنما يراد منه كل ما يصدر عن الشيطان ويرتبط به ؛ ذلك أن مرجعه الأول هو نفس الشيطان ..

وحتى تتبين لك المسألة جيداً ؛ اقرأ هذا الحديث الصحيح :

- قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « أصدق كلمة قالها شاعر : كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل» ..

ومعنى هذا القول أن كل شيء ليس لله ، ولا في الله : فهو باطل ..

وقد آن لنا أن نفهم "الطاغوت" بمعناه العام ؛ وهو : الشيطان وما يتبعه ويرتبط به .. والدليل على ذلك ظاهر في كتاب الله (تعالى) ..

- قال الله (تعالى) : {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}
- وقال الله (تعالى) : {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (*) وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} .

بجمع هاتين الآيتين يظهر بجلاء أن "الطاغوت" هو الشيطان ..

- وقال الله (تعالى) : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}

وهذه الآية واضحة .. {يقاتلون في سبيل الطاغوت} .. {فقاتلوا أولياء الشيطان} ..
فالطاغوت هو الشيطان الذي يُقاتل في سبيله الكفار ؛ لأجل ذلك صاروا أولياءه ..

قال الطبري في تفسيره :
[--{يقاتلون في سبيل الطاغوت} ؛ يعني : في طاعة الشيطان ، وطريقه ، ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه ، من أهل الكفر بالله --]

وفي تفسير الطبري – أيضاً – عند قول الله (تعالى) : {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله} ؛ قال :
[-- قال عمر (رضي الله عنه) : إن الجبت : السحر ؛ والطاغوت : الشيطان ...

ومعنى قوله في الطاغوت أنه "الشيطان" قوي جداً ؛ فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية ، من عبادة الأوثان ، والتحاكم إليها ، والاستنصار بها . --]

وبالمحصلة ؛ فإن وصف "الطاغوت" ابتداءً يُعنى به الشيطان ؛ ويشمل أيضاً كل من يدعو إلى سبيل الشيطان من معصية الله (تعالى) ..

○ معنى "الطاغوت" في اللغة

وهذا يدل عليه المعنى اللغوي أيضاً ؛ فإن "الطاغوت" في اللغة هو : الرأس في الطغيان .. و"الطغيان" هو : مجاوزة الحد ؛ وذلك يعني في الشرع : المعصية ..

- قال الله (تعالى) : {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا}
- وقال الله (تعالى) : {كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي}
- وقال الله (تعالى) : {قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ}

انظر إلى استعمال وصف "الطغيان" للدلالة على المعصية ..

فعليه : كل رأس في المعصية ، يدعو إليها ، ويأمر بها : فهو طاغوت ..

○ "الطاغوت" اسماً وحُكماً

ذكرنا فيما مضى أن أول ضلال الغلاة كائن في اختلاط مسألة الأسماء والأحكام عليهم ، وعدم التفريق بينهما بضوابط الشرع ..

فمن جُملة شبهاتهم أن قالوا أن اسم "الطاغوت" إنما يُطلق فقط على شخص "كافر بالله" ؛ يدعو إلى الكفر الناقض للإيمان .. كما هو ظاهر من نصوص الكتاب والسنة .. فعليه : من حقّ عليه وصف "الطاغوت" ، فهو بالضرورة كافر .. وتكفيره داخل في معنى الكفر به !!

وجواب ذلك معلوم عند من يعلم ضوابط الأسماء والأحكام في دين الله (تعالى) ..

فأما "الاسم" ، فإنه لا يقع إلا على من التزم الوصف الذي يدل عليه هذا الاسم ، **حتى صار يُعرف به ، وسِمة له تدلّ عليه !** .. وهذا يقتضي أن هذا الوصف الذي استحق به ذلك الاسم قد بلغ صاحبه الغاية منه ، حتى صار اسماً له .. وبذلك ، فإن "الاسم" هو وصف مطلق يُبيّن الحال العام الذي عليه صاحبه . وهو متعلق بشخص صاحب الاسم بالمقام الأول ؛ لأجل ذلك يُعرف شخصه بهذا الاسم ..

أما "الحكم" ، فإنه ما يلحق "الاسم" ؛ ومتعلقه هو : فعل صاحب الحكم الذي استحق به اللحوق بصاحب الاسم ؛ دون أن يحمل اسمه !

كيف يعني ؟!

تأمل الآية التالية :

- قال الله (تعالى) : {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}

معلوم أن النار يدخلها عصاة المؤمنين الذين لا يُسمون كافرين ؛ فكيف نوفّق بين هذه الآية وهذا الأمر ؟ .. الجواب : يدخلها الكافرون ومن أُلحق بهم حُكماً من عصاة المؤمنين في خصوص ما شابهوهم به من المعاصي !

وحتى يتوضح الأمر أكثر : انظر إلى التفريق بين "أهل الكتاب" و"المشركين" في التسمية والأحكام الدنيوية .. مع أن الجميع مشتركون في حكم الشرك !

لذلك فإنا نقول : إن "الطاغوت" **حكماً** يدخل فيه كل من دعا إلى معصية الله (تعالى) ، ولو كان مسلماً لا تصح **تسميته** بـ "الطاغوت" ؛ لكنه يبقى في حكمه ما دام يدعو إلى المعصية .. وهذا ما يهمنا أساساً في عبادتنا لله (سبحانه وتعالى) ؛ أن نعلم الحق فنتبعه ، ونعلم الباطل فنجتنبه ..

- قال الله (تعالى) : {ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ} ..

هذا هو حقيقة شهادة التوحيد : لا إله إلا الله .

- وقال الله (تعالى) : {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} ..

في هذه الآية دليل على أن من يأمر بمعصية الله (تعالى) فله حُكم "الولي من دون الله (تعالى)" ، وهو يشمل جميع الناس ممن اتصف بذلك ، سواء كان مسلماً أم كافراً .

○ معنى الكفر بالطاغوت

إن فهمت هذا جيداً : علمت أن "الكفر بالطاغوت" لا علاقة له بمعرفة من يستحق أن يسمى طاغوتاً ومن لا يستحق ! .. بل متعلقه الأول والأساس هو : أن تكف عن معصية الله (تعالى) ..

- قال الله (تعالى) : {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (*) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}
- وقال الله (تعالى) : {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}

وقد ذكرنا في أول هذا الباب أن الغلاة يتشبثون باسم "طاغوت" ويتركون بقية الأسماء ! .. فلماذا لا يتكلمون عمّن يستحق أن يسمى : نداً ، وولياً ، وشريكاً ، وغير ذلك من الأسماء التي يُعنى بها الطاغوت ؟

زد على ذلك أن هذه المباحث ، في اسم الطاغوت ، وضوابط أن يكون فلان طاغوتاً وغير ذلك ؛ هذه مباحث بدعية لم يهتم بها السلف الصالح ؛ ولم تظهر إلا مع ظهور قضية التكفير وارتباطها بأصل الدين والعذر بالجهل وما إلى ذلك ..

➢ مسألة الكفر بالشيء وتكفيره

هذه من أكثر المسائل التي يثيرها الغلاة ، وقد أجبنا عنها بالتفصيل في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب ..

لكن لديّ إضافة ههنا أقولها ؛ وهي أن "التكفير" هو مجرد صورة من صور "الكفر بالشيء" ؛ وليس داخلاً في أصل معناه .. فأصل معناه هو : اجتنابه وإنكاره وجحوده ..

كيف هذا ؟

أقول لك : ما حكم من كفّر النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ هل هو كافر به بذلك ؟! ..
الجواب : نعم .. فأقول : وهل تكفير النبي (صلى الله عليه وسلم) ضروري حتى يُكفر به ؟! ..
الجواب : كلا !

ومثل هذا يقال في كثير من الأعمال التي هي صورة عن الشيء وليست داخلة في أصله ..

فقتال الطاغوت ، والسخرية منه ، وسبّه ، والتفكه والاستهزاء به : كل هذه من صور الكفر بالطاغوت ؛ وهي ليست ضرورية لأجل تحقيق الكفر به !

طبعاً ، إن ذهبت تجادل الغلاة في ذلك ، لا تنس أن تسألهم ، أول ما تسألهم ، عن معنى "التكفير" ، حتى تختصر الكثير من الوقت والجهد في جدالهم !

إلى هنا ينتهي الجزء الأول من هذا الكتاب ؛ ولنا موعد مع الجزء الثاني ؛ وفيه نرد على عامة شُبهاتهم وأدلتهم ، إن شاء الله (تعالى) ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات